إسكندرية فلسطين

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: إسكندرية فلسطين

تـأليـــــــف: محمد إبراهيم الشتيحي

القـطـــــع: 14*20

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

سنـة النشـر: 2024

النـاشــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29812 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 2 - 573 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-573-2

إسكندرية فلسطين

رواية

محمد إبراهيم الشتيحي

إهداء

إلى ذاك الذي يمكث وحيدًا في غزة فلسطين الصامدة...

وحيدًا جدًا.

تنويه

١٠٪ من مبيعات هذا العمل ستُخصص لدعم غزة، عبر مؤسسة "مرسال".

مقدمة

في كل زاوية من زوايا الحياة، تختبئ قصصٌ لم تُروَ بعد، قصصٌ تحمل في طياتها أحلامًا، آلامًا، وتضحياتٍ لا يعرفها سوى من عاشها. هذه الرواية، ليست مجرد حكاية عن حبٍ ضاع أو حياةٍ انتهت، بل هي مرآة لواقعٍ متشابك من الألم والأمل، بين شوارعٍ ضيّقة في أسكندرية وبُعدٍ عميق في أعماق فلسطين.

في هذا السرد، نغوص في أرواح أبطالٍ عاشوا لحظاتٍ من الفقد والندم، وتقاطعت مساراتهم مع مآسي تاريخية وحروب لا ترحم. إنها رحلة عبر الزمن، تروي قصة أمجد وليلى، اللذين ناضلا في صمتٍ تحت سماءٍ لا تعرف سوى الألم، لكنهما لم يتخليا أبدًا عن الأمل، حتى في أصعب لحظات الوداع.

ما بين الحقيقة والخيال، يُنسج حكايةٌ عن الهويات المفقودة، والذكريات المحطمة، والقلوب التي تعلمت كيف تَنسى، لكنها لا تنسى. فهل ينجح الحب في تجاوز حدود الزمن والألم؟ أم أن التاريخ سيظل يظلّ أبدًا حاكمًا على مصائرنا؟

إلى تلك الأسئلة، نبحث معًا في هذه الرواية، لنكتشف أن كل نهاية قد تكون بداية، وأن لكل قلبٍ صبره الذي لا ينتهي.

(١)

كانت شمس ذلك اليوم الشتوي الدافئ تملأ سماء الإسكندرية وتعكس ألوانًا بهيجة على صفحة الماء الممتدة للأفق، وتُضفي لونًا ذهبيًا على الرمال وكأنها سلسلة ممدودة من الذهب الخالص تحيط بجيد البحر.

والبحر، في هذا الدفء، يمتلئ بالحياة، والشاطئ خالٍ من مرتاديه في هذا الوقت إلا اثنين متحابين يفترشان الرمال وكأنهما كمال لصورة البحر بحبهما الفتي النضر.

شاب يجلس وساقاه ممدودتان في الرمال، ويفتح قميصه ليظهر صدره العاري في صورة لا تتناسب مع جو الشتاء، وكأن شتاء الناس صيف له. وفتاة فائقة الجمال تتوسد فخذه وتنام على الرمال في دعة، وهو يخلل أصابعه بين شعرها ويحركها مع الرياح، وعيناه لا تغادرانها أبدًا وكأنه يحاول حفظ ملامحها.

ذلك الشاب كان أمجد، الابن الوحيد لأحد أثرياء الإسكندرية. توفي والده وهو يبلغ الإحدى والعشرين ربيعًا، وترك له ثروة معقولة أغنته عن العمل، فقرر أن يعيش حياته ويستمتع بأموال والده لأطول فترة ممكنة.

كان أمجد فارع الطول، ذا ملامح رجولية، وجسد رياضي، ولون أبيض أتت على بياضه الشمس فلفحته بلونها المميز.

وحياته كانت بين الرياضة والسهرات الليلية مع الأصدقاء ولقائه اليومي مع ليلى.

ليلى، فتاة غاية في الحسن، لا يملك أحد إلا النظر إليها إذا قاده حظه السعيد لرؤيتها. كانت دليلًا على أن ما زال للجمال آفاق لم يرها بشر قط. جمالها يُنافس جمال زرقة البحر ويغلبه، ببشرتها البيضاء النقية وشعرها الأسود الطويل الناعم وعينين نجلاء بلون سواد الليل وقت الفجر، وشفاه ممتلئة بالحياة بلون قرمزي شهي، وقوام غاية في الرشاقة وطول معتدل. وقد تم جمالها كالبدر مع تمامها الثمانية عشر عامًا.

تنحدر من أسرة متوسطة يعولها أب طيب يمتلك محلًا لبيع وتصليح الساعات في محرم بك، وأم غليظة الخُلق وقاسية القلب بما لا يتناسب مع جمال محياها. وقد ورثت ليلى جمال الأم وطيبة الأب، فأصبحت جوهرة بلورية نادرة الوجود.

كان أمجد يعبث بشعر ليلى في ود ومحبة، بينما تأخذه ذاكرته لأول مرة وقعت عيناه عليها.

كان يسير على قدميه بين محلات الساعات المنتشرة يبحث عن ساعة جديدة، وأمام محل ما، تفحص جميع الساعات المعروضة فلم تُعجبه واحدة. وعندما اتخذ طريقه مبتعدًا، توقف مشدوهًا للحظات وهو يسأل نفسه: ماذا رأيت للتو؟

ثم عاد خطوتين إلى الخلف ونظر في اتجاه الساعات مرة أخرى، لكنه هذه المرة كان ينظر خلفها، صوب نهاية المحل، لذلك الركن البعيد المنير بذاته دون احتياج لأضواء مساعدة.

كانت ليلى تجلس في رقة متناهية، وشعرها منساب على نصف وجهها وعلى ثوبها الأزرق السماوي البسيط.

تسمر في مكانه بعض الوقت ينظر إلى ذلك الجمال الذي لم يرَ مثله يومًا وهو فاغر فاه. وعندما أفاق بعض الشيء من ذهوله قرر الدخول.

دخل أمجد وهو يصوب سهام عينيه إلى تلك الفتاة الآخذة للب والعقل والعين. مع التفاتتها لترى الزبون القادم، عندها لم يتمالك نفسه إلا أن يُثبت عينيه عليها بدون مراعاة للذوق، فقد كان المشهد أقوى من أن يتذكر أمر الذوق، وشعرها يتحرك على وجنتها لينساب على كتفها وظهرها في رقة ونعومة. وعيناها تتلاقى بعينيه، ليرى تلك العيون التي لم ينسها بعدها أبدًا، ولم ينس تلك النظرة الجميلة التي تحمل كل براءة الدنيا.

استمر في النظر إليها دون أن يلحظ استغرابها، ثم تورّد خديها خجلًا من تلك النظرة الثاقبة التي يرمقها بها ذلك الشاب الوسيم الذي اقتحم بنظراته أنوثتها بدون استئذان أو طلب. ولم يفق أمجد من سكرته إلا على نداء متكرر من رجل لم ينتبه تمامًا لوجوده:

أي خدمة يا فندم؟

تلجلج لسانه مصحوبًا ببعض الحرج، ثم أخبره بأنه يريد أن يشتري ساعة.

عرض عليه الرجل بعض الساعات وأمجد مشغول عنه بالنظر خلسة إلى الفتاة، والفتاة تلحظ نظراته الجانبية وتقابلها بتجاهل ظاهر.

وعندما وجب عليه أن يختار ساعة من الساعات المعروضة أمامه، أظهر حيرة مصطنعة. فالواقع أنه لم تُعجبه أية ساعة، فسأل الرجل عن رأيه، فاقترح عليه ساعة منهم فقبلها أمجد على الفور. ثم طلب منه أن يعرض عليه بعض الساعات النسائية ليشتري واحدة هدية لصديقة، فعرض عليه بعض الساعات فأظهر حيرة أشد.

وأخبر الرجل أنه لا يعرف أي شيء عن الذوق النسائي، وقبل أن يتطوع الرجل فيقترح عليه واحدة كما فعل مع الساعة السابقة، سبقه أمجد موجهًا حديثه إلى الفتاة:

ممكن تساعديني في اختيار الساعة؟

رد الرجل دون انتظار رد الفتاة:

أوي أوي، ليلى ذوقها حلو، تعالي يا ليلى اختاري ساعة للفندم.

اسمها ليلى؟ ما أحلى اسمها! هكذا حدث أمجد نفسه، بينما الفتاة تتحرك من مكانها بتأنٍ شديد وتنظر إلى الساعات المعروضة، ثم تشير إلى ساعة منهم دون أن تنبس ببنت شفة.

هاخدها.

وقفت الفتاة مكانها وهو مشغول بها عن حديث الرجل الطويل عن جودة ساعاته وعن الاختيارات المميزة وحسن اختيار ليلى.

وحين انشغل الرجل في تغليف الساعات، أخرج أمجد ورقة صغيرة من جيبه، كتب عليها رقم هاتفه، ثم وضعها أمام ليلى وهمس لها:

الساعة دي محدش هيلبسها غيرك، هتكون أول هدية مني ليكي.

احمرت وجنتاها بشدة من الخجل، لكنه تركها دون أن ينتظر ردًا منها وذهب إلى الرجل، دفع ما طلبه ثمنًا للساعات دون أن يُفاصل في السعر، وخرج من المحل يمشي ببطء، وليلى تتابعه بعينيها في ارتباك وخجل وبعض السعادة.

وعندما خرج، التفت إليها من وراء الساعات المعروضة، وابتسم إليها، فأشاحت بوجهها في ارتباك شديد، فحوّل نظره إلى اللافتة على المحل ليقرأ اسمه (صلاح للساعات).

نظر إليها مرة أخرى، وهي ترمقه بجانب عينيها، ثم استقل سيارته ورحل.

أقام أمجد بجانب الهاتف، ينتظر رنينه بشوق، وإذا رن، هب إليه مندفعًا حتى وإن كان نائمًا، لكن مع كل رنين له يُصيبه الإحباط لأن المتصل ليس كما يشتهيه أن يكون.

وبعد ثلاثة أيام من الانتظار، لم يستطع أن يمنع نفسه من الذهاب مرة أخرى لرؤيتها، لعله يحظى باهتمامها هذه المرة.

دخل محل الساعات ونظرات شوقه تسبقه، لا يعلم كيف يشتاق إليها هكذا وهو لا يعرفها، وهي لا تعرفه! لكنه قد اشتاق إليها شوقًا يحسه في قلبه كلدغات شمسية حارقة في صيف أغسطس.

عندما رأته، حاولت إخفاء ابتسامتها، ولكنها لم تقدر، فأشاحت بوجهها في رقة ودعة وأنوثة صارخة، وقد أوشك أمجد أن يذهب إليها ليرفع وجهها بيديه لتنظر إليه، لكن منعه مجيء صاحب المحل مُندهشًا وعلى وجهه الهلع:

إيه يا فندي، الساعات فيها حاجة؟

رد بارتباك:

لأ أبدًا، دي عجبت صديق ليا وجيت أشتري واحدة كمان.

تهللت أسارير الرجل وذهب ليحضر بعض الساعات الجديدة ليعرضها على أمجد، تاركًا أمجد ليتأمل ليلى، وهي متلاهية عن عينيه في ارتباك فرح.

اختار أمجد ساعة، ليأخذها الرجل ليغلفها له. تحرك أمجد في خفة صوب ليلى وهمس لها:

من فضلك، كلميني قبل ما أخلص كل فلوسي على ساعات مش هلبسها.

ابتسمت ليلى دون أن تحاول أن تُخفي ابتسامتها هذه المرة، لتهلل أسارير أمجد ويفرح فرحة غامرة، فقد حصل أخيرًا على ابتسامة واضحة ومشرقة منها، وأحس أن الدنيا تبتسم له عن طريق شفاه تلك الفتاة الفائقة الحُسن.

مد يده لها مرة أخرى بورقة صغيرة بها رقم هاتفه، لعلها تكون أهملت الأولى وفقدتها، فأخذتها بحياء.

وعندما أتم الرجل تغليف الساعة وتزيينها، أخذها أمجد واتجه إلى الباب، وعند الباب قبّل إصبعين من أصابعه وأرسل إلى ليلى قبلة بهما دون أن يلحظه الرجل.

رجع بيته سعيدًا منتشيًا، وقد زاد اليقين في قلبه أن تلك الفتاة الساحرة ستتصل به هذه المرة. وانتظر بجانب الهاتف بترقب أشد، ليُصاب بخيبة الأمل يومًا بعد يوم.

وبعد أسبوع من الانتظار المرير، قرر أن ينساها ولا يهتم بأمرها، بل قرر أن يعود إلى محل الساعات ليحاول إعادة الساعات مرة أخرى، فقد اشتراها تحت تأثير غوايتها وبدون أن تعجبه إياها، وإن لم يرضَ صاحب المحل أن يُعيدها، لعله يقبل بإعادة الساعة النسائية، فقد اشتراها لها وهي غير موجودة لتأخذها منه.

ذهب إلى المحل والحنق يملأه، وعندما دخلت عيناه قبل قدميه ورآها في ركنها البعيد، تغيّر كل حنقه إلى رجاء ورغبة.. يرجوها أن تستجيب له ويرغبها كما لم يرغب فتاة قط.

وعندما رأته، ابتسمت.. فابتسم وغيّر رأيه أن يُعيد الساعات.. فاشترى ساعة أخرى وذكّر ليلى برقم هاتفه ورحل مُمنيًا النفس بمكالمة قريبة.

انتظر.. وطال انتظاره كالمعتاد.

وفي اليوم التالي، عندما دقت الساعة معلنة اقتراب انتصاف الليل، رن هاتفه. رد أمجد بدون اكتراث، فقد أصاب قلبه اليأس أن تتصل به صاحبة الطلة البهية، وأجاب على الهاتف بصوت كسول ليقابله صمت مُطبق على الجانب الآخر. انتبهت جميع حواسه.. إنها هي

بلا شك، يشعر برحيقها يصله عبر أسلاك الهاتف. طار من السعادة في ثقة أنها هي، لكنه تمالك أعصابه وسأل من المتصل مرة تلو الأخرى، ليجيبه الصمت المطبق في كل مرة.

وعندها، وبصوت رجولي يملؤه الشوق والحب، قال للمتحدث الصامت:

شكرًا إنك اتصلتي بي.. وأشتاق إلى سماع صوتك.

شعر بردة فعل المتصل بعلو أنفاسه، ثم إغلاق الهاتف بارتباك.

أصابته الصدمة من إغلاقها الهاتف دون أن تبادله أي حديث، لكنه كان يشعر بالسعادة في قرارة نفسه، والخوف أيضًا من ألا تُعيد الاتصال به.

وانتظر كثيرًا أن تعاود اتصالها المأمول، وطال انتظاره، لكنه مع ذلك لم يُداخله الشك بأن المتصل كان أحدًا غيرها.

وبعدما ملّ الانتظار، قرر أن يأخذ خطوة نحوها، لعلها تقبل المجيء إليه.

فخرج صباحًا مع بداية استيقاظ العصافير وذهب إلى محل الساعات ينتظر استيقاظ عصفورته المجهولة. وعندما أخذت الشمس طريقها إلى كبد السماء، رأى صاحب المحل قادمًا من بعيد يمشي بتعجل ليفتح المحل، لكن ليس معه أحد.

انتظر أمجد في سيارته وقد زاد أمله في أن يتمكن من الحديث معها، لأنه كان يخشى أن تأتي مع هذا الرجل الذي يبدو وكأنه والدها.

وبعد طول انتظار، لم يدرِ أمجد بنفسه إلا وقد غالبه النعاس في سيارته. نام المنتظر فرأى فيما يرى النائم ليلى تأتي إلى سيارته، توقظه بيدها وهي تبتسم ابتسامتها المشرقة. فيضم يدها إلى يده ويقبل باطنها، فتزيد ابتسامتها. ثم يسمع رعدًا ويرى برقًا وتتساقط زخات المطر من فورها وصوت الكون زاعق وكأنه يصرخ من سكرات موته. لا يقطع صرخاته ولا يماثله إلا صراخ طفل صغير يأتي من وراء البحار. فيشد يد حبيبته ليدخلها السيارة، فيجد يدًا متيبسة بين يديه لامرأة مصفرة اللون. يصرخ ويترك يدها، فتذهب هي لجانب الجدار وتجلس ضامة ساقيها إلى صدرها وتبكي بكاءً مريرًا.

فيرجل من سيارته وقد رق قلبه لها ولبكائها، فينسدل الليل على الفور فلا يراها ولا تراه. فيحاول أن يناديها فلا يتذكر اسمًا يناديها به. فيحاول أن يزيح الظلام بيده، فيتداخل الظلام كدخان كثيف في صدره وقلبه فيتخبط ويقع على الأرض وهو يرده عنه وكأن الظلام يريد أن يأخذ روحه من جسده. وبينما هو يغالبه، أنقذته لسعة الشمس فانتبه وقد أغرقه عرقه والشمس في كبد السماء حارقة، وصوت لهاثه مرتفع.

بقي قليلًا يحاول أن ينزع نفسه من ذلك الحلم. ثم توجه بنظره إلى المحل ليرى الفتاة جالسة في ركنها المعتاد ونظرها مصوبًا في اتجاهه، وعلى وجهها بعض نظرات القلق، أو قد يكون قد خُيّل له ذلك.

فنظر إلى ساعة يده ليجد الساعة قد تعدت الواحدة بعد منتصف النهار، وقد غفل بنومه عن رؤية حبيبته وهي تدخل المحل. شعر بحنق شديد وضيق من نفسه، وقد غاب حلمه عن تفكيره.

رجع إلى البيت فاغتسل من عرقه، لتأتيه مشاهد حلمه وهو تحت الماء المنساب على جسده العطشان لبرودته. تُرى ماذا كان؟ حاول إبعاد الحلم عن ذهنه مرارًا، وتناول إفطارًا متأخرًا، ثم ركب سيارته وعاد إلى المحل قبل أن تغرب الشمس. وعند وصوله وجد ليلى وكأنها تتأهب للرحيل، فعرف أنه أخيرًا قد وصل في الوقت المناسب. وعندما خرجت وألقت عليه نظرة متعجلة، ترجل من سيارته وذهب وراءها.

فأسرعت الخطى وقد شعرت بخطواته وراءها، فأسرع الخطى. وعندما أصبح في ظهرها مباشرة، وضع يده على كتفها يستوقفها، وبرجاء قال:

انتظري من فضلك.

شعر برجفة تسري في جسدها لتصل إلى يده، ثم استمرت في مشيها وكأنها لم تسمع قوله. ثم تريثت قليلًا، ووقفت واستدارت له نصف استدارة، ليرى عينيها الجميلتين وبهما حيرة وتردد. وبحروف راجية تتحرك شفاهها:

أنا لا أصلح لك.

صدمته الجملة ليقف في مكانه، وقبل أن يفهم ما تقصده بقولها، جرت مسرعة لتختفي.

عاد أدراجه وقد ألجمته جملتها. أتكون متزوجة؟ لكن أين زوجها إن كانت كذلك؟

عاد إلى سيارته وانطلق بها بلا هدف حتى وصل إلى البحر. فترجل وجلس أمامه وقد شارفت الشمس على المغيب، لتملأ حمرتها الأفق وكأنها جرح ينزف على مهل من السماء الزرقاء، كما ينزف قلبه الآن.

لقد رأى كل الرجاء في عينيها مخلوطًا بحزن دفين يستطيع أن يميزه. أيكون ذلك الرجل الذي في عمر والدها قد اشتراها من أهلها في الفلاحين بماله، وقد أضنت عليها الحياة بزوج شاب تحبه ويحبها؟ أم أنها لا تميل إليه وقد ضايقها لحاقه بها؟ أيكون غيرها هو المتصل في ذلك اليوم، وقد غلبه الحنين إليها فتخيل وهما أنها هي المتصل؟

وفي وسط سرحانه، قفزت صورة رجل أمام عينيه:

عم محمود؟ عم محمود هو الذي سيأتي لي بالمعلومات التي أريدها.

قفز في سيارته وقادها مسرعًا كأنه يسابق الطريق، حتى وصل إلى مقهى مشرف على بداية محرم بك. فترجل ودخل متلفتًا ليجد رجلًا يرتدي بدلة قديمة رمادية اللون بها خطوط طولية أكثر رمادية، وكأنها تم غسلها أكثر من مئة مرة، وأمامه كوب من الشاي المخلوط بالحليب وسبحة قصيرة في يده.

اتجه أمجد صوبه مباشرة وأمامه ناداه باسمه. فالتفت إليه، وعندما وقعت عيناه عليه تهللت أساريره بشدة وقام على فوره ليحتضنه بشدة:

أمجد الغالي ابن الغالي.

كيف حالك يا عم محمود؟

أنا بخير يا بني. كيف حالك أنت؟ اشتقت إليك يا ابن الغالي.

ما زالت الطيبة تملأ وجهه الصبوح، بنفس الملامح الحنونة.

كان عم محمود هو الساعد الأيمن لوالد أمجد، وصديقه الطيب. كان يقوم بكل الأعمال التي يطلبها منه والده بحب وتفانٍ، حتى إذا أتى المساء اختلى بوالده فجلسا يتسامران وقد خلعا رداء العمل، حتى يبدأ الليل بالزحف فيفترقا بروحين منتعشتين من حديثهما الودود.

عندما وعى أمجد على الدنيا، عرف أن عم محمود أرمل ماتت عنه زوجته منذ زمن. وعرف لاحقًا أنه بعدما خطبها زحف المرض اللعين على جسدها، فأبى إلا أن يتم زواجه بها. وبعد الزواج تحسنت حالتها قليلًا بعدما يأس الطب منها ويئست هي منه، وحملت منه. وبعد حملها بشهر، رجع إليها المرض بأشد ما يكون وكأنه لم يغب عنها مطلقًا، وبعد معاناة طويلة ماتت قبل أن يأتي من في بطنها ومات معها. فقد عم محمود شهوته للنساء من بعدها، فعاش أرملًا لها لعله يقابلها في الجنة لتلد له ابنه الذي انتظره منها في الدنيا.

وعندما توفي والد أمجد، اعتزل الناس والعمل، فأصبحت جلسته المعتادة المسجد نهارًا والمقهى مساءً.

وقد أتى أمجد إليه لأنه يعرف أن له خبرة بسكان محرم بك وأصحاب المحلات أيضًا، فقد قضى عمره كله في حواريها وتعامل مع كثير من الناس بحكم اشتغاله في التجارة مع والده.

عندما استقر المجلس بأمجد مع عم محمود وأتى صبي المقهى بفنجان قهوة له، وبعد السؤال المعتاد عن الأحوال وبعض الحديث عن الماضي والذكريات، ابتدأه عم محمود بالسؤال:

ماذا يشغل بالك يا أمجد؟ أرى الأسئلة تتقافز في عينيك!

عم محمود، أنت تعرف معظم أصحاب محلات محرم بك؟

مش معظمهم! أعرفهم كلهم.

تعرف محل صلاح الساعاتي؟

آه، ماذا فعل لك؟ صلاح الساعاتي رجل طيب.

هل هو متزوج؟

متزوج وعنده أولاد. لماذا السؤال؟

والفتاة التي تجلس معه في المحل ليست زوجته!

لا، ابنته ليلى.

تنهد أمجد عندما سمع أنها ابنته، ثم أتبع:

وليست متزوجة؟

ابتسم عم محمود وقد فهم ما يجول في خاطر أمجد:

ليست متزوجة.

الحمد لله، أريد أن أعرف عنها وعن صلاح الساعاتي كل شيء يا عم محمود. الفتاة تعجبني بشدة وقد تجعلني أطلق عزوبيتي من أجلها.

أطرق عم محمود رأسه قليلًا، ثم بخيبة أمل قال:

هي ليست متزوجة وهي فاتنة وطيبة القلب وراقية المعاملة، لكنها لا تصلح لك.

شحذت الجملة الأخيرة كل انتباه أمجد، نفس الجملة التي أخبرته ليلى إياها!

لا تصلح لك لأنها يهودية.

أُسقط في يد أمجد، وقد سقط قلبه وذبل لون وجهه وهربت الدماء منه. يهودية؟! لتمتد يد عم محمود الدافئة لتمسك يده الباردة:

أحببتها؟

أوي.

ليست نصيبك. هكذا الحب أحيانًا يفعل بنا الأفاعيل، وكل أملنا أن يحدث لقاء أبدي بين المحبين في الآخرة.

ابتسم أمجد له ابتسامة باهتة، ثم استأذنه وهمّ بالرحيل، فأمسك عم محمود يده قائلًا:

أمجد، لا تحارب الدنيا فتهزمك!

شكره أمجد وذهب وهو يشعر بأن روحه قد فارقت جسده، فصار يمشي كأي جماد بلا حياة.

بات ليلته مكسور الخاطر، يرجو النوم فيأبى أن يأتيه، حتى إذا استيقظت الشمس أخذ باله المشغول وخرج يستأنس بدفئها من البرودة الزاحفة على قلبه.

على شاطئ الإسكندرية جلس، وزرقة البحر تملأ الأفق، والشمس وبعض الرياح الخفيفة تداعب وجنتيه. باله مشغول بهذه الفتاة التي ملكت قلبه دون أن تستأذن، وكلمات عم محمود ترن في أذنيه: "لا تحارب الدنيا فتهزمك". يريد أن ينساها وينسى الأسابيع الأخيرة تمامًا! لكن أنى له أن ينسى تلك العيون الجميلة، وتلك الأنوثة الطاغية، وتلك الكلمات التي تخرج منها كقطرات العسل.

قرر أن يستعين على قلبه بأصدقائه، فذهب إلى صديق عمره منير.

منير شاب من الطبقة المتوسطة، معروف بين أقرانه منذ الصغر بالذكاء الشديد، وبمبادئه التي لا تتغير، وهذا جعل الجميع يحترمونه ويقدرونه، رغم الأقاويل التي تُثار حوله أحيانًا مدفوعة بالغموض الذي يلف بعض جوانب حياته. فهو معروف بأنه يعمل بالتجارة، ومن أجل تجارته فهو دائم السفر، يغيب في أسفاره بالأسابيع وأحيانًا الشهور، لكن لا يعرف أحد ما نوع تجارته. وعلى الرغم من دماثة خلقه، لم يمنع ذلك الناس أن تتناقل أحيانًا بعض الأحاديث عن متاجرته بالعملة، أو بالمخدرات!

والسوء دائمًا ما يلاقي أذنًا منصتة، بعكس الخير.

ذهب أمجد إلى بيت منير وهو يعرف أنه هذه الأيام موجود في الإسكندرية. وعندما وصل إلى بيته، وجده في شرفته مبتسمًا يلوح له. ببشرته السمراء، والعروق النافرة من رقبته، وأسنانه الشديدة البياض التي تجعل ابتسامته أكثر بهاءً وصفاءً، والتي سرعان ما تلاشت من على شفتيه حين رأى ذلك الشحوب والوجوم على وجه أمجد.

بعد احتساء الشاي الساخن في الشرفة، حكى أمجد لمنير حكايته مع ليلى، ومنير يستمع بإنصات شديد. وعندما أتم وعرف بأمر يهودية ليلى، لم يستطع الحفاظ على رصانته، وضحك بصوت عالٍ وبشكل متواصل، وأمجد ينظر إليه بغضب، ما لبث إلا وتحول إلى ابتسام ثم مشاركة في الضحك. فيوم ما دق قلبه، ترك كل المسلمات في بلد ذي أغلبية مسلمة وأحب فتاة يهودية!

بينما تخرج الدنيا لسانها الطويل له، وبعدما هدأ الضحك، تحدث منير بأنه يوافق على كلام عم محمود الحكيم، لكنه يعرف في الوقت نفسه أن الأمر ليس بالسهولة الظاهرة.

لماذا لا تعمل؟ العمل سينسيك مشاغل الهوى.

لا أجد نفسي على مسار والدي، فلم أستطع أن أتبع خطواته في العمل وحيدًا، وفي نفس الوقت لا أتحمل بيروقراطية الوظيفة الميري. لست هذا الشخص.

ثم أطرق لحظة وكأن فكرة ما تجول بخاطره، قبل أن يقول:

أشتغل معاك!

ارتبك منير وتلعثم لسانه، قبل أن يرد بحشرجة خفيفة:

معي؟

بحماس أجابه أمجد:

نعم، معك! لم أسألك يومًا عن نوع تجارتك، رغم أنك من أقرب الناس إليَّ، بل قد تكون أقربهم، لكني الآن أطلبها منك. وأيًا كانت نوع تجارتك فسأكون معك، بالمال والجهد. وسأبذل قصارى جهدي بجانبك كي نزيد التجارة نجاحًا.

ابتسم منير لحماسته، ثم قال مداعبًا له:

حتى وإن صدقت أقاويل تجارة العملة وغسيل الأموال وتجارة المخدرات؟

رد أمجد مع ابتسامة صغيرة سرعان ما تلاشت من على شفتيه:

أعرف أن كل هذا ليس بصحيح، لكن كوعد صديق وكلمة شرف... وإن كنت تتاجر في السلاح سأكون معك!

ابتسم منير بود صادق، قبل أن يقول:

إذًا فلتعطيني فرصة لأستشير رئيس العصابة وأطلب منه أن تنضم إلينا.

ضحك أمجد ملء فيه قائلًا:

إذًا فلتفعل.

قضيا ساعات بعدها في هزارٍ ومرح، قبل أن يسيطر النوم والتعب على أمجد وقد تناسى بعض الشيء ذكر ليلى وصبابة الهوى. فاستأذن وراح إلى بيته ليأخذ قسطًا من الراحة. وعندما رجع إلى

بيته، هاج عليه قلبه وصورة ليلى تحيطه من كل اتجاه بابتسامتها، قبل أن تقول له بطريقة جادة: "أنا لا أصلح لك!"

أصبح الأمر يشبه الهذيان في ظل إرهاق جسده وعقله الشديد، حتى غلبه التعب فنام.

ورأى فيما يرى النائم، وكأنه واقفٌ على ضفة نهر جارٍ صافٍ، والأسماك الملونة تظهر تحت سطحه الشفاف وهي تتقافز وتلعب بمرح، ثم رأى ليلى على الضفة الأخرى بثوبها الأزرق البهي، وتحمل طفلًا صغيرًا آية في الجمال، وابتسامتها تنير وجهها. لوح لها ودعاها أن تأتي إليه، فتقدمت إلى النهر لتمشي على سطحه وكأنه تحول إلى جماد تحت أقدامها، والسمك يتقافز من حولها. حتى إذا انتصف النهر بها، ظهر على جانبيها تماسيح متوجهة إليها. فهلع أمجد وأخذ يصيح فيها بأن تسرع الخطى، لكنها لم تبدي استجابة وكأنها لا تسمعه. فأسرع هو لها كي ينقذها، والنهر من تحته صلب، حتى إذا وصل إليها احتضنها هي والطفل، ليسيل الماء الجامد تحت أرجلهما، فيسقط الطفل منهما في قاع النهر وهما يصارعان الغرق، والتماسيح من حولهما. يحاربها ويحاول أن ينقذ الطفل وأن يحتفظ بليلى ويحفظها من الغرق، والبحر يثور من حوله في موجٍ ودوامات متكاثرة. حتى إذا غالبه الموج وكاد أن يغلبه، استيقظ فزعًا وأنفاسه القصيرة ودقات قلبه متسارعة، والعَرَق يغمره تمامًا.

احتاج الأمر لبعض الدقائق كي يتمالك نفسه، قبل أن ينظر إلى الساعة ليجد أنه لم ينم إلا ساعتين فقط. قبل أن يهجم عليه ذلك الحلم الغريب ليسيطر على باقي يومه، فيمنعه من النوم ثانية أو

يشل قلبه من الجزع. فقضى أيامه في هذا الهذيان، يقاطعه أحيانًا خاطر فضوله عن ماهية تجارة صاحبه التي لم يخبره بها بعد.

حتى إذا انقضت ثلاثة أيام من هذا الهذيان المتصل، رن هاتفه فجرًا ليجد منير على الجانب الآخر يطلب منه إعداد حقيبة ملابسه لأنهم سيسافرون بعد ساعة.

لم يناقشه أمجد، ولم يسأله إلى أين السفر. كان يريد أن يهرب من هذيانه بأي شكل كان.

أعد حقيبته وبها الكثير من الملابس الرياضية كما طلب منه منير، وبعد ساعة بالضبط كان منير في انتظاره أسفل البيت. نزل إليه وراحا، وهو يشعر بأنه مقدم على أمرٍ جلل أثناء هروبه من قلبه، ومنير بجواره ملامحه جامدة لا تعبر عن شيء.

ركبا القطار إلى القاهرة، وقضى منير الرحلة نائمًا، وأمجد يراقب الطريق في وجوم، وهو يرى الزراعات المترامية والفلاحين مبكرين في حقولهم كتبيكير الطيور، ساعين على رزقهم بفأسهم...

وهناك راكب في آخر عربة القطار يدندن بأغانٍ شعبية، ويرد عليه بعض الركاب أحيانًا فيغنون معه، وبائعو الكازوزة وحلويات طنطا والحمص ينشطون تباعًا ليملؤوا القطار بأصواتهم المنادية على ما يبيعون بطريقة غنائية.

آلهه ذلك عن طول الطريق، حتى وصلا إلى القاهرة. فدب النشاط في جسد منير فجأة، كما هب في الجميع يجرون ليذوبون وسط المسافرين المنتظرين قطاراتهم، ووسط سكان القاهرة.

خرجا سويا من محطة القطار، وقد أشرفت الساعة على العاشرة، وجلسا على مقهى قريب من المحطة. فطلب منير إفطارًا لهما فأكلا ثم شربا الشاي، والملل بدأ يدب في أوصال أمجد وهو لا يعرف إلى أين، وماذا بعد!

وعندما دقت الساعة الثانية عشر، أذن المؤذن لصلاة الظهر في المسجد المقابل للمحطة، فقاما وتوضآ وصليا، والشيطان يأكل رأس أمجد فلا يدعه يركز في صلاته. وبعد تمام الصلاة صليا السنة وجلسا في المسجد. منير أخذ يسبح على يديه، وأمجد ينظر إليه.

حتى إذا أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة إلا ربعٍ، قام منير وكأن حية لدغته، وطلب منه الإسراع خلفه. رجعا إلى المحطة، وذهب منير ليقطع لهما تذكرتين، وجرى وأمجد يلحق به ليلحقا القطار المتأهب للرحيل في تمام الواحدة ظهرًا.

وصلا إليه في اللحظات الأخيرة وقد بدأ التحرك، وعندما ركباه، أمسك أمجد بتلابيب منير قائلًا:

عرفني إحنا رايحين فين؟ أنا مسألتكش طول الطريق، بس دلوقتي من حقي أعرف.

أزاح منير يده بهدوء وابتسامة ثم أجابه:

بني سويف.

هدأ أمجد قليلًا، قبل أن يزيح منير يديه من عليه ويأخذه من يده مثل الأطفال قائلًا:

تعالي نقعد.

جلسا في سكوت، حتى بادر أمجد بالسؤال:

ما نوع تجارتك؟

ماينفعش أقولك هنا، استنى لما ننزل.

لأ، لازم أعرف وهنا حالًا.

رد منير بحزم:

مش هقولك غير لما ننزل، ولو مش موافق ممكن تقفز من القطار وتعود.

نظر إليه أمجد بحنق، ليتبع منير بود:

إهدأ يا صديقي، الطريق مش طويل.

هدأ أمجد قليلًا، وتلهى عن حنقه بالطريق، وقد غاب عن عقله صورة ليلى، لكنها بكل تأكيد تقبع في قلبه ساكنة ومستقرة.

وبعد ساعتين مرا عليهما كالدهر، وصلا بني سويف، فترجلا من القطار ومشيا ببطء، حتى خرجا من محطة القطار ومشيا مترافقين بتروي، حتى بدأ منير بالكلام:

أنا بتاجر بجسمي ودمّي وروحي، عشان مصر.

نظر إليه أمجد نظرة عدم فهم، ليكمل منير:

لو لم أكن أثق بك لما قلت لك، ووثقت بك بأن تأتي معي إلى هنا. أنا في مجموعة من المقاومة الشعبية ضد الإنجليز، نتدرب ونقوم بعمليات ضد قوات الاحتلال في السويس وفي بؤر تجمعاتهم على أرضنا الطاهرة.

ظهرت آثار الصدمة على وجه أمجد، قبل أن يقول:

مناضل؟

أحاول أن أكون، ولك الحق أن تقبل أن تكون معنا أو لا، فالأمر...

قاطعه أمجد:

أنا معك.

بجدية أكمل منير:

الأمر لم ينتهِ، حياتك ستكون في خطر دائم، وستقضي أيامًا طويلة في تدريبات شاقة في الواحات.

موافق، أنا معك. وعدتك، ومن عادتي الوفاء بالوعد.

تهللت أسارير منير من رده الحاسم، ثم قال:

بينا نرجع المحطة.

محطة؟ محطة القطار؟

نعم، بني سويف ليست مقصدنا.

إمّا رايحين فين؟ وإيه اللي نزلنا بني سويف؟

بخبث ونظرة ماكرة أجابه منير:

الزقازيق. إحنا جينا بني سويف عشان لو ما وافقتش تنضم لينا، ما تكونش عرفت مكان التدريب.

لكزه أمجد في كتفه، ليكمل منير مبتسمًا:

معلش، الأوامر كده.

أخذ أمجد رقبة منير تحت إبطه، قبل أن يطلقها، ويرحلا معًا وقد تحول مله إلى حماس منقطع النظير.

وصلا القاهرة، ثم استقلا القطار مرة ثانية للزقازيق، ليصلا وقد زحف الليل ليملأ الدنيا بظلامه الغامض، وزحف تعب السفر على جسديهما، وكان في انتظارهما سيارة سوداء صغيرة، ركبا بعدما صافح منير سائقها بحرارة، الذي رحب بأمجد بابتسامة ونظرة فاحصة لم تخفيها ابتسامته.

مرت عليهم ساعة ونصف والسيارة تسير وسط الحقول، ثم تخرج إلى صحراء مبتعدين عن كل أخضر لتصغر المنازل خلفهم حتى تختفي تمامًا في صفار الصحراء ويختفي لونها تحت وطئة الليل.

وفي مكان ما توقفت السيارة، وضع منير يده على كتف أحمد قائلًا:

يلا يا بطل هننزل.

نزلا من السيارة بينما لم يتبعهما السائق، الذي ودعه منير ملوحًا بيده، وأمجد ينظر حوله لصحراء لا توجد بها أي حياة، حتى نطق منير:

هنمشي شوية.

سارا في الصحراء، ومنير ينظر إلى السماء كثيرًا متبعًا النجوم، ومرت عليهم ساعة أخرى وأمجد يجر رجليه جرًا، حتى وصلا لتبة صغيرة. فقال منير مبتسمًا وهو يضع يده على كتفه:

وصلنا. أنا عارف إنك تعبت.

تعبت؟ أبدًا! أنا قرب يغمى عليا بس.

ابتسم منير، ثم أطلق صافرة طويلة من فمه، لترد عليه صافرة طويلة مماثلة تأتي من فوق التبة، فدارا حول التبة، ليجد أمجد خيمتين متجاورتين كبيرتين، وبعض الرجال بثياب مدنية ومعهم اثنان في ثياب البدو يلتفون جميعًا حول نار ورائحة طعام شهية تلف المكان.

وعندما رأوهم قاموا من فورهم والبهجة ظاهرة على وجوههم معانقين منير، ومصافحين أمجد بحرارة وكلمات الترحيب تتطاير من كل مكان.

جلسا معهم ليأتي الطعام سريعًا لهما، فيأكلان بشراهة، وأمجد يظهر في طريقة أكله وشراهته أن الطعام قد أعجبه بشدة، حتى إذا أتما العشاء، اصطحب منير أمجد إلى بئر مجاور، اغتسلا وتوضأا، وصليا ثم توجها إلى مكان معد للمبيت في إحدى الخيمتين، وأخلدا للنوم، لينام أمجد كما لم ينم منذ أسبوع!

"٣"

"ليلى"

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا، وانتعاش الصباح ما زال يلف الإسكندرية مشبعًا برائحة البحر، لكن انتعاش ليلى اليومي في هذا الوقت كان ينافس انتعاش بحر الإسكندرية ويغلبه،
عندما يهم والدها بالنزول ليفتح المحل صباحًا يدخل لغرفتها فيفتح النافذة لتشرق الشمس بها كما تشرق روحها لتفيض على أي مكان توجد فيه...
فتستيقظ، والابتسامة مرسومة على شفتيها كما لو كانت قد نامت بها، فيقبلها أبوها على جبينها ويخرج.
وتظل هي في سريرها قليلًا ثم تقوم لتغتسل بحمامها اليومي، وتمر على أمها في المطبخ لتُلقي عليها تحية صباح جافة، وترد أمها تحيتها الجافة بتحية أكثر جفافًا، بل تكتفي أحيانًا بهز رأسها.
لم تكن علاقة الأم بابنتها على ما يُرام، لم تكن تريد طفلة، وعندما حملت بها أحست بأن ما تحتويه أحشاؤها أنثى وليس ذكرًا، فكانت تكره حملها ورافضة له، وبعدما أنجبتها طفلة تخطف نور الشمس من فرط جمالها وحسنها، ما كان من الطفلة إلا أن رفضت أن تلقم صدر أمها تمامًا، فرضعت من نساء كُثر، لكنها لم تأخذ قطرة لبن واحدة من ثدي أمها.

وأخذت الأم الرسالة بأن هذه الطفلة لا تحبها ولن تفعل، فأصل ذلك شعور الرفض تجاهها، فقابلت رفض طفلتها برفض أكبر، فأهملتها ونبذتها، فاهتم بها أبوها المغلوب على أمره، وأصبح يأخذها معه إلى المحل صباحًا ينشغل بين رعايتها ورعاية المحل، لكن ليلى وكأنها تفهم ما يدور حولها لم تكن تخذله أبدًا، فكانت طفلة هادئة تمام الهدوء وهي مع أبيها، وكبرت وشبت وهي تقضي مع أبيها في المحل أغلب يومها.

لم تكن ليلى تتوقف عند رد أمها الجاف، بل كانت تخشى أن تُغير ردها ليصبح به بعض الود يومًا ما، لم ترغب يومًا في محاولة إقامة أي جسور بينهما، حتى أنه عندما تحدث معها والدها في هذا الشأن قاطعته يومين.

بعد المرور الصباحي الجاف، تغتسل وتجفف شعرها لينساب على كتفيها وكأنه صُفف على أيدي أمهر مصففي الشعر، وتحتسي كوبها الصباحي من الشاي ممزوجًا باللبن، وتنزل من البيت لتمشي في الطرقات والنشاط يتقافز مع خطواتها وأغاني أم كلثوم تتهادى في سريرتها وتُغني معها بصوت خفيض.

تصل إلى محل الساعات قُبيل العاشرة بقليل، ليهل معها الخير كما كان يقول لها والدها دائمًا "ليلى وجه السعد".

فتجلس وطاقتها وانتعاشها يخلقون مجالات حب وإيجابية فيما حولها، لكن هذا اليوم كان الأمر مختلفًا.

فقد كانت تجلس هناك في ركنها المفضل وتختلج في صدرها مشاعر مختلفة بين الحب والشوق والقلق،

فقد غيّر ذلك الشاب الجريء كل حياتها وقلبها رأسًا على عقب،

عندما نطق لها باسمه وعرفت أنه يُدعى أمجد، لم تعد دقات قلبها تدق بشكلها الرتيب المعتاد، بل أصبحت دقات قلبها ذكرًا لإسمه يبتهل به القلب لعله يُغالب عقلها فيقبل أن يرتبط بمن هز كيانها من أول نظراته الرجولية التي اخترقت جسدها وقلبها اختراقًا.

هي في حكم المخطوبة لابن خالتها الذي لا تطيقه، كانت تنفر منه ومن كل تفاصيل شخصيته وحركاته وسكناته، وكانت صحبته ولو لدقائق هما كبيرًا فكيف لو صاحبته العمر كله؟

كان أبوها يعلم ذلك، لكنه يسكت باستسلام لامرأة يخشاها كما لا يخشى أحدًا قط، وكانت هي تتحاشى ذكر الأمر أو التفكير فيه ما دامت جثته ليست بالجوار، تؤجل القضاء لوقت وقوعه.

لكن ذلك اليوم الذي التقت عينيها بعيني أمجد تغير كل شيء، أحست برعشة تسري في كيانها واستقرت به، لا تُريد شيئًا في الدنيا إلا أن تُمضي بقية عمرها مع ذلك الشاب الوسيم الغريب الأسمر اللون الرجولي الملامح.

لكن عقلها أبى إلا أن يُنغص عليها أمنيتها، ليُوقظها من أمنيتها المستحيلة.

فهي شبه مخطوبة، ولا تعرف ذلك الشاب، والأهم أنها يهودية وهو ليس كذلك بكل الأحوال فكل يهودي في الإسكندرية يعرفون بعضهم البعض.

تحول نفورها من ابن خالتها العريس المنتظر إلى كراهية شديدة، وتحول بعض انتعاشها لقليل من الإحباط ورجاء اليائسين.

لكن أمجد كان دائمًا ما يُجدد انتعاش روحها بزياراته المتكررة، وملاحقته اللطيفة لها، وعندما يغيب عنها تتصل به لتسمع صوته

دون أن تنبث ببنت شفة، حتى إذا انتعشت روحها تنهدت وأغلقت الخط في ارتباك كعادتها.
أحبته، كما لم يكتب شاعر قط واصفًا الحب.
وعندما غاب وغاب، اتصلت برقمه المدون في ذاكرتها من أول مرة تركه لها على ورقة صغيرة في ذلك اليوم، لكنه لم يُجب على هاتفه هذه المرة، فأعادت الكرة مرة بعد مرة، لكن الصمت المُطبق كان المُجيب.
بدأ القلق يعرف طريقه إليها، والحنين يدغدغ مشاعرها لتشعر به في أطرافها.
اتصلت يوميًا مرات كثيرة، وانتظرت كل يوم لعله يأتيها كما كان يفعل، لكنه لم يُجب يومًا ولم يأتِ مطلقًا.
بدأ قلبها في الإنزواء داخل صدرها وروحها في القفول، ليحجبوا طاقاتها ويطفئوا شمعتها المنيرة رويدًا رويدًا، فأصبحت قليلة الكلام، شاردة الذهن، تقضي يومها في ذلك الركن دون أن تبتسم أو تظهر أي تعبيرات على وجهها المليح، بل وأصبحت لا تُلقي تحيتها الجافة اليومية على أمها.
كانت الساعة تُشير إلى العاشرة وقلبها مفتور على فتاة جميلة، أصابها الهرم فجأة!
لكنها من ركنها الهادئ ومن وراء طبقات حزنها السميكة لمحت تلك الابتسامة التي تعرفها على الجانب الآخر من الطريق أمام المحل. اعتقدت أنها تتخيل كما تفعل دائمًا أنها تراه، لكنها اكتشفت أنها لا تراه إلا في قلبها. فأشاحت بوجهها، ثم ببطء أعادت النظر لترى الابتسامة مازالت هناك لتدقق في الملامح رويدًا

رويدًا، وروحها تنتعش وقلبها يرتعش رويدًا رويدًا أيضًا. إنه هو، أمجد يقف هناك مبتسمًا لها وهو يستند بجزعه على عربته.
كانت تود أن تقوم فتعاتبه ثم ترتمي في أحضانه باكية منتحبة، لكنها تماسكت رغم تلك الابتسامة التي ظهرت على شفتيها لتكبر وتكبر وتتحول إلى ضحكة مسموعة بدون سبب، جعلت والدها ينظر إليها بتعجب، لكن أيضًا بفرح أنها ابتسمت أخيرًا بعدما غابت ابتسامتها عنها قرابة الشهر والنصف.
لم يسألها ما بها كما لم يسألها لماذا ضحكت الآن، فهو يعلم أنها لو كانت تود أن تحكي له لحكت دون أن يطلب منها ذلك.
ذهب أمجد بعد نصف ساعة من رؤيتها له، وجلست هي تدفع عقارب الساعة دفعًا ليمر الوقت وتذهب إلى البيت بانتظار أن تتعاطف الساعة معها وتدق العاشرة مساءً ليذهب الجميع إلى النوم وتتصل هي بمن امتلك روحها بلا استئذان ولا رجعة.
دقت الساعة أخيرًا بالموعد المنتظر، وبعدما انتظرت عشر دقائق مررن كسنة، دق جرس هاتف أمجد، وليلى في الجانب الآخر تعرف وتعترف بأنها لا تستطيع الحياة بدونه.
دق الجرس طويلًا وعندما قارب على الانتهاء، رد أمجد.
عندما رد أمجد، ذابت كلماتها من على شفاهها وانعقد لسانها فسكتت، ثم غالبت حياءها ونطقت أخيرًا بكلمة واحدة:
أحبك.
وأغلقت الهاتف وهي تلوم نفسها أنها لم تستطع الحديث معه والبوح له بكل ما تحمله من حب وحنين، وأن تلومه على اختفائه الطويل عنها.

وجلست وشيطانها يتحرك بها يمينًا ويسارًا... أيعرف أنها هي المتصلة؟ أم أنه قد يعتقد أن غيرها هي المتصلة ولا يُعيرها انتباهًا!
قضت ليلتها متقلبة في فراشها، ونزلت في الصباح أكثر تبكيرًا عن عادتها، لينخلع قلبها ويتراقص بداخل صدرها فرحًا عندما تجده يجلس على عربته قريبًا من المحل يُراقب مجيئها.
وعندما وقعت عينيه عليها، تقدم إليها بخطوات ثابتة، وعندما أصبح أمامها توقفت وهي تنظر إليه نظرة ما بين الخجل والحب، لتخرج أولى كلماته لها بلكنة تحبها:
وأنا كمان بحبك.
قالها وهو مبتسم وعيونه يظهر عليها الخشوع، خشوع الحب!
فتشجعت وتخطته دون أن تتحدث، متجهة صوب سيارته، فتحت بابها وجلست.
كان قلبها يتراقص بداخلها فرحًا، وعقلها يصرخ محتجًا، لكنها تشعر براحة لم تعرف لها مثيلًا من قبل.
رجع أمجد لسيارته، وخطواته متقافزة أقرب ما تكون إلى الطيران، وتحرك بسيارته ويده اليسرى تمتد لتُعانق يد ليلى، يد حبيبته، وتتخلل أصابعه أصابعها.
وهنا صمت عقل ليلى المحتج... وسيطر قلبها على الموقف برمته...
تحبه... ولن تتنازل عن حبها له أبدًا.

"٣"

"الصحراء"

الصحراء عالم آخر وحياة أخرى، بحارٌ من الرمال الملتهبة متموجة كخصلات شعر فتاة غجرية، عميقة عمق ساحر عجوز يجلس ممسكًا بعصاه أمام خيمة، يجلس حوله الأطفال يستمعون لحكاياته اللامعقولة. كل شيء فيها رتيب إلا الصبر، فزاعق بشدة.

استيقظ أمجد على صيحات تخرج من حناجر بشرية، بعدما نام بعمق وكأن للصحراء أثرًا محمودًا على نومه، نام ولم تراوده أحلامه عن نومه كما هي عادتها منذ دق قلبه.

تجمد لبرهة ليتذكر أين هو ولماذا، قبل أن تُعيد ذاكرته بث أحداث الأمس في عقله مرة واحدة.

فكر قليلًا، هل ورطت نفسي في أمر أكبر مني؟

لم تستغرق الإجابة إلا ثوانٍ ليُجب بهمة: لا، إنها ستكون حياة حافلة بما تستحق أن تحفل به. سيرسم لحياته أهدافًا جديدة تستحق أن يُفني الإنسان حياته من أجلها.

خرج من خيمته لتصدم عينيه شمس الصحراء الساطعة فيغمضهما ويرفع يديه ليحجب أثر الأشعة عن عينيه قبل أن يُعيد النظر برويّة، ليميز على بعد قرابة المائة متر عشرات الشباب متراصين وقوفًا في أربعة مجموعات على شكل دوائر، يقف في

وسط كل منها شابان آخريان يشتبكان بطريقة توحي بأن أحدهما يشرح للباقيين بعض الحركات القتالية، وتبدو عليهم المهارة لكن بطريقة متفاوتة. فالحركات في بعض الدوائر تبدو وكأنها مراحل متطورة عن الحركات القتالية في غيرها.

لم يلحظ خروجه أحد، فبدأ يتأمل في المكان بتمعن أكثر. نساء مُوشحات بالسواد يجلسن منشغلات ببعض الأعمال اليدوية التي لا يُميزها، وأطفال يرتدين ثيابًا قريبة الشبه من ثياب البنات، من جزء علوي طويل يصل إلى الركبتين، وبنطال قصير تحتها. يبدو عليهم الإهمال، فلا شعر مُرتب ولا ثياب نظيفة، ويلعبون كمعركة جماعية ينتصر فيها من يُوقع الآخر على الأرض.

رآه طفل منهم فنظر إليه نظرة طفولية حلوة، فابتسم أمجد له، لكنه سرعان ما دفعه طفل ليجري خلفه غير عابئ بالشخص الغريب الذي يقف على باب الخيمة.

نظر أمجد في ساعة يده: الساعة الواحدة بعد الظهر!

انتبه منير لوقوف أمجد على باب الخيمة، فأشار إليه بيده ببهجة واستأذن ليذهب له، وأتى إليه بابتسامة واسعة تصحبه.

لاطفه ببعض الكلمات الصباحية وأخذه في جولة في المكان بعد أن اغتسل، وبدأ في الحديث كمرشد له:

الحياة هنا مختلفة تمامًا، فالنظام هو من يحكم كل تفاصيلها، والصحراء تُحب من يحبها وتلفظ من يقدم لها الكره. افتح لها قلبك تُعطِك ما لا تتخيله من الصبر والبأس والقوة.

في هذه المنطقة يعيش مجموعة صغيرة من البدو المتعاونين معنا، مجموعتنا مكونة من عشرين مناضلًا، لنا خيمة وللبدو خيمة، وينضم إلينا مجموعات أخرى قريبة على بعد ما بين الساعة والساعتين سيرًا على الأقدام. وانضمامهم لنا هو نوع من التمارين الصباحية، وننضم لهم نحن أيضًا مرات. ومن هذه التبة التي دُرنا حولها بالأمس، لنا مراقبون يعملون على مدار الساعة في مراقبة الخارج والداخل في نقاط تشكل مستطيلًا لمسافة تصل إلى العشرين ميلًا.

البدو يذهبون نهارًا للرعي ويعودون مع عودة الشمس إلى مغربها كل مساء، وتقوم نساؤهم بإطعامنا، لكن علينا نحن غسل ثيابنا وتجفيفها فهم كرماء، لكن لا يعملون عند أحد. وغسل الثياب يعتبرونه من تلك الأعمال التي لا يقومون بها إلا لأهلهم.

وعند عودة الرجال مساءً، يكون قد شرفن على الانتهاء من الطهي ليُقدم الطعام للجميع.

العشاء هنا هو الغداء، فالوجبة الرئيسية تُقدم مساءً، وفي بعض الأيام تنتظر النساء رجالهن ليقوموا بالشيء، ويأكل الجميع مما يشوون.

البدو لهم طقوسهم الخاصة في الحياة، احترم عاداتهم يحترموك، ولا تتخيل مطلقًا أن وطنيتك وحبك لمصر أكثر عمقًا وتأصلًا من وطنيتهم وحبهم لها.

أحيانًا لا نشاركهم الجلسة المسائية اليومية، ونكون في تدريبات ليلية أو عمليات صغيرة يقوم بها بعض الأفراد من مشاركين ومراقبين وراصدين للمكان والأشخاص المستهدفين من العملية.

الاستيقاظ في الفجر قانون ثابت، ونومك اليوم لمنتصف النهار استثناء، ولا يختلف الأمر كوننا تدربنا ليلًا وخلدنا إلى النوم في ساعة متأخرة أم نمنا مبكرًا، ففي كل الأحوال سنستيقظ مع الفجر. التدريبات ما بين بدنية وذهنية، ويقوم بها بعض الأفراد الأعلى تدريبًا والذين يقودون الفرق، ويحدث التنسيق بين جميع المجموعات في هذا المستطيل في الصحراء، وأيضًا بعض المجموعات الأخرى التي لا نعلم مكان تدريباتهم.

المقاومة المسلحة ضد الإنجليز تقوم به مجموعات وفصائل مختلفة، لكن يجمعنا هدف واحد: تطهير بلادنا من دنس المحتل، وأن يدفع فاتورة غالية لكل ليلة يبيتها على أرضنا، فلا يغمض له جفن ولا يهدأ له بال ولا سريرة ولا يهنأ بالعيش هنا.

استمع له أمجد بانتباه شديد ونظره يدور في المكان وهما يتجولان في الصحراء في دوائر على مسافة قريبة من الخيمة، قبل أن يأخذه منير من يده في اتجاه إحدى المجموعات لينضما إليها. رحبت به المجموعة بود شديد، وأتت باقي المجموعات لترحب به أيضًا، والحماس والإصرار يملآن قلبه.

كان يتذكر والده وهو يجلس مع عم محمود في المساء يتسامران ويتجاذبان أطراف الحديث، وهو جالس يستمع لهما بتركيز بالرغم من انشغاله الظاهري ببعض ألعابه.

كان كثيرًا ما يأخذهما الحديث للإنجليز والملك والأحزاب السياسية في مصر، ومازال يتذكر تلك الليلة التي أتى فيها ذكر الإنجليز وما فعلوه من سرقة في مصر ونهب وتخريب، فذكر عم محمود حادثة دنشواي فبكى والده بحرقة وهو يذكر تفاصيلها وكيف قاموا بشنق فلاحي مصر بدم بارد.

كان يتذكر تلك الواقعة كأنما حدثت بالأمس، ويتذكر صوت والده المليء بالحنق، ثم أمل يظهر في صوته وهو ينظر إليه ويقول: "الأمل في جيل أمجد يطهرون البلد من الأوساخ".

لم يعقل وقتها جميع كلمات والده، لكن عقله اللاواعي ترسخ فيه كره المحتل والاحتلال وكل ما يتعلق بهما، لذا لم يتردد حين عرض منير عليه الأمر، والآن يملؤه إصرار وتحدي ويشعر وكأنه وُلد ليكون هنا، بين المقاومة الحرة للاحتلال.

حينما انتهوا من الترحيب به، طلب منهم أحدهم أن يصطفوا صفوفًا ويجلسوا على الرمال. شد منير على يد أمجد ليجلس، وحينما استقر الجميع في صفوف منتظمة، بدأ الرجل بالحديث.

اسمه سامح، في بداية الأربعينات من العمر، يخلط بعض الشيب رأسه من الجانبين، وشعيرات بيضاء قليلة في حاجبيه تعطيه شكلًا مميزًا. طوله قرابة المائة والتسعين سنتيمترًا، عريض المنكبين، وعروق رقبته ويديه نافرة، وعظام يده تظهر من تحت الجلد لتعطي مظهرًا مخيفًا لهما. عينيه رمادية اللون ذات نظرات صاقبة، وبرغم حجمه وشكله المهيب، يرى فيه الناظر طيبة لا يعرف مصدرها.

أصله من مدينة السويس، مدينة القناة التي تم بناؤها على جثث أبناء الوطن لتكون منجمًا ذهبيًا لسارقيها ودماء المصريين تجري فيها مع ماء البحرين الملتقين فيها.

تطوع في حركات مقاومة منذ كان عمره ١٥ عامًا، وأعطى حياته كلها للمقاومة، وتدرب مئات المناضلين على يديه، وهو قائد مجموعتهم الصغيرة، والقائد العام حين انضمام المجموعات في ذلك المستطيل لتدريبات أو عمليات مشتركة.

عرّف سامح بنفسه قليلًا، وحكى منير لأمجد عنه في المساء كثيرًا.

كان منير يعتبره قدوة له يتمنى الوصول إلى ما وصل إليه من فن ومهارة وجل وحكمة.

كان قويًا في صمته، وحينما يتحدث لا يملك الحاضرون إلا الإنصات التام. له حضور طاغٍ، ويُحبه الجميع.

عندما أتم التعريف بنفسه بطريقة مقتضبة وبكلمات قصيرة، تحدث عن قواعد لا يحيد عنها أحد في المعسكر:

كل ما يحدث هنا هو سر لا يعرفه أحد حتى وإن كان أقرب الأقربين.

الأجازات، قائد كل سرية هو من يُحددها، وهي أمر خاص به لا يخضع للقياس بين أحد أفراد المجموعة وآخر.

الاستيقاظ في الفجر مهما كانت الظروف.

الاستعجال غير مُدرج في حياتهم، فلكل شيء أوان.

أنهى كلامه بصوت جاد، ثم أتبعه بابتسامة ودودة وهو يمد يده لأمجد قائلًا:

أنت في بيتك، أهلًا بك.

قام الجميع من مكانهم وعادوا إلى مجموعاتهم الحلقية، وأخذ سامح أمجد إلى مجموعته، وهو يلتفت لينظر لمنير:

لأ، إنت هتبدأ مع المجموعة دي دلوقتي. لسه قدامك شوية عشان تنضم لمجموعة منير، لكن ستكونون كثيرًا في مجموعات قتالية واحدة، لكن ليس الآن.

قضى أمجد ما بقي من نهاره في تدريبات عضلية، قبل أن تميل الشمس للغروب قليلًا لتبدأ بعض المجموعات في التحرك في اتجاهات مختلفة، وتبقى مجموعة مكونة من عشرة أفراد فقط، ليبدأ شخص يُدعى مأمون تعليمه كيفية إمساك السلاح الأبيض الصغير والتعامل به بسرعة وكفاءة.

مرت الساعات وأمجد في استمتاع بالتدريبات وفي شغف للحصول على مزيدٍ منها، حتى أصابت الشمس حمرتها لتتجه إلى الاختفاء أكثر وكأن أحدهم قد أصابها بسهم فأدماها وقررت الرحيل، ثم بدأت أصوات تصفير متقطعة تأتي من التلة القريبة مع قدوم قطيع الغنم يسوقهم البدو وحولهم خمسة كلاب يمشون بخِلاء.

استقبل الأطفال القادمين باحتفالٍ صخب، والكلاب تأتي إليهم ليتقافزون معهم، ثم تظهر عليهم الخِلاء مرة ثانية ليطوفون حول القطيع ليجمعوا الغنم في دائرة متلاصقة ببعضهم البعض.

أشاح الرجال بأيديهم بالتحية لهم مع ابتسامات خاطفة، والنساء قد دبت فيهم الحيوية يجرين ليُجهزن الطعام ويُقدمنه للرجال في أسرع وقت.

وبعد قرابة الربع ساعة كان الطعام مرصوصًا أمامهم، ورائحته تزكم الأنوف لتسيل لعابهم.

صينية كبيرة من الأرز الأبيض، وصواني صغيرة مليئة بمرقٍ أحمر، والرجال ملتفون حولها، وعندما بدأ أحد البدو الأكل، بدأ الجميع في الأكل من بعده وهو يدعوهم للبدء.

كان منير قد أحضر لأمجد طبقًا صغيرًا وملعقة، بينما الجميع يأكلون كما يأكل البدو، يغرفون من الطبق الكبير بالمعلقة ثم يمررونها في المرق الأحمر ثم يأكلونها، وأمجد ملتهٍ بمراقبته لهم عن الأكل.

فلكزه منير وهمس في أذنه:

لم يكونوا يأكلون بالملعقة. اتطوروا كده، كل وما تركزش مع حد، نظرات الاستغراب من عاداتهم بتضايقهم.

بدأ أمجد في الأكل وهو ينظر إلى الباقين بنظرات جانبية وهم يأكلون بدون تردد بهذه الطريقة، حتى منير يأكل غير عابئ بشيء، فقرر، ثم نحى طبقه بعيدًا وبدأ يأكل معهم مثلما يأكلون، دون أن يلحظ ابتسامة سامح ومنير، ونظرة الرضا في عين ذلك البدوي.

الحاج محمد، هو مضيفهم وكبير العائلة، في جميع ملامحه خلجان حفرها الزمن ليخلق من وجهه لوحة قديمة مرسومة

بألوان أصلية، رفيع الجسد لدرجة الهزال، ويُميزه عن الباقين طاقية كبيرة بنية اللون قائمة فوق رأسه كبرج حمام مرتفع.

له من الأبناء خمسٌ، وما يقرب من الخمسة عشر حفيدًا بين شباب وأطفال، بخلاف أحفاده من البنات اللائي تزوجن ورحلن للعيش مع أزواجهن في أماكن مختلفة.

عندما تأتي إحداهن للزيارة هي وزوجها، يرحل الجميع قبل مجيئهم ويقضون ثلاثة أيام بلياليها عند مجموعة أخرى لحين رحيل الضيوف.

ماتت زوجة الحاج محمد منذ زمن، فتزوج من فتاة صغيرة في السن وأخت أحد أزواج بناته، وحين تزوجها أصبحت سره، وأنجب منها طفلين.

وقبل أن يتموا الأكل، أشار الحاج محمد بعينيه لأحد أبنائه فقام عن الطعام وأجج شعلة نار كانت مغطاة ووضع عليها برادًا كبيرًا مليئًا بالماء.

وبعد دقيقتين من ذلك كان الجميع قد أتم طعامه، وبدأت النساء برفع الطعام ليأخذونه بالداخل ليأكلوا بعدما فرغ رجالهم منه.

وعندها نظر الحاج محمد صوب أمجد وبصوت خافض قال له:

مرحب.

فتلعثم أمجد قليلًا قبل أن يرد:

مرحب بك.

همس في أذنه منير قائلًا:

هذا أقصى ما قد تسمعه من الحاج محمد.

أومأ أمجد لمنير برأسه متفهمًا، وهو ينظر لإبن الحاج محمد وهو يضع بعض ملاعق الشاي في البراد ثم يتركه ليغلي ويصبه في أكواب صغيرة بعدد الحضور، ثم يقوم لأبيه ليعطيه كوب الشاي خاصته، ثم يمر على الجميع بعد ذلك بصينية أكواب الشاي ليأخذ كلٌ منهم كوبه.

نكهة الشاي كما الطعام مختلفة، بها رائحة الفحم، بينما الماء والشاي مخروطان مع بعضهما البعض وكأنهما كانا شيئًا واحدًا في الأصل.

شرب أمجد شايه باستمتاع، وكان يتمنى كوبًا ثانيًا، ولم يُخيَّب ظنه وقدموا دورًا ثانيًا من الشاي ليتشبع رأسه تمامًا به كما يرجو بالضبط.

ثم انسحب الحاج محمد من مجلسهم بهدوء، ليبدأ الجميع تجاذب أطراف الحديث مع بعضهم البعض، وأبناء الحاج محمد يتحدثون معهم كأصدقائهم، قبل أن ينسحبوا واحدًا تلو الآخر وراء أبيهم ويتركوهم في صمت وقد هد التعب أجساد الجميع، ليشير سامح لهم أن قد حان وقت النوم، فيتحركون نحو الخيمة كلٌ إلى مكان نومه بطريقة أشبه ما تكون بالآلية ما عدا اثنين ينطلقون في الصحراء نحو هدف ما لا يعرف مهيته، لكن يبدو أنهم يعرفونه جيدًا.

ويتبع أمجد منير ليُريه مخدعه الذي لم يألف مكانه بعد، وبعد أقل من خمس دقائق بدأت أصوات الصفير والشخير تعلو بطريقة موسيقية متناغمة، ليتحدث منير مع أمجد على صوت تلك النغمات الأنفية ويحكي له عن سامح، وعن الحاج محمد، وعن زوجته الجديدة وأبنائه وأحفاده، والثلاثة أيام بلياليهم التي يقضونها عند إحدى المجموعات الأخرى حين زيارة إحدى بناته له مع زوجها وأبنائها أو بدونهم في بعض الأحيان.

وفي أثناء الحديث بدأ منير بتركيب الكلمات بطريقة خاطئة ليعرف أن النوم قد آن أوانه، فينام من فوره ويترك أمجد متيقظًا منتظرًا النوم أن يأتيه كما أتى صاحبه، وعضلات جسده كلها بدأت تأن بذبذبات صغيرة تتكاثر رويدًا رويدًا من أثر تدريبات اليوم الشاقة لإنسان لم يعتادها.

ووسط تجمع الآلام عليه، قفز وجه أمام مخيلته لتنغز قلبه دقات صغيرة من الشوق والألم لتُغطي على آلام عضلاته فلا يشعر بها، لكنه سُرعان ما أبعد ذلك الوجه المقرب لقلبه عن مخيلته، ذلك الوجه الذي جلب له الحب والعذاب معًا، وجه ليلى.

"ع"

نام أمجد نومًا هادئًا، لكن بعد قرابة الثلاث ساعات وعندما ارتاح جسده قليلًا استيقظ، وكأنما لم يعتد بعد على النوم بعيدًا عن سريره.

استيقظ ليجد الجميع مازال نائمًا، وساعة يده تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.

فتح عينيه لينظر في سقف الخيمة ويسرح بخيالاته، فأتى إلى قلبه ذكر ليلى، فتلاهى عنه بذكرى والده.

كان أمجد لا يعرف شيئًا عن والدته إلا ما حكاه له والده عنها، توفيت قبل بلوغه الخامسة عامًا بشهرين، يتذكر ملامحها، ابتسامتها الصبوح، ويتذكر دفئًا لم يجده بعد رحيلها في أي مكان، لكنه كثيرًا ما يتشكك في أن كل ما يتذكره هو فقط من نسج خياله وصورة قديمة لها وهي متعلقة بيد أبيه وتحمله.

تذكر أنه يحمل هذه الصورة معه دائمًا في حافظة نقوده، أخرجها وهو يعرف أنه لن يرى تفاصيلها في هذا الظلام الدامس، مسكها وتحسسها وكأنه يتحسس وجوه من فيها ويشعر بملامحهم بين أصابعه.

وبينما هو يفعل ذلك، بدأت صورة أمه في الظهور أمام عينيه، وكأنه يرى صورتها تتشكل أمام عينيه في منتصف المسافة بينه وبين سقف الخيمة، تتشكل بطريقة بطيئة، عينان يلتحمان، وشفاه مع

خدين وأنف صغير وشعر متطاير ينسدل على كتفيها ورقبتها، كأنه يُشاهد صورة تُرسم أمامه.

وعندما وضحت الصورة أكثر وأكثر، رأى العجب!

رأى وجه أمه وكأنما هو وجه ليلى، نفس الملامح والابتسامة والشعر والنور الخارج من العينين ليُضيء قلوب الناظرين.

أيُخيّل له أن ليلى تُشبه والدته بالفعل؟ أم كل ما في الأمر أن ذكر ليلى يلاحقه ليجعل الأشياء كلها تنطق باسمها وخيال هيامه بها يخدعه!

لم يجد أمجد إجابات على تساؤلاته، لكنه أيقن أن هوى ليلى سيلاحقه لفترات طويلة قادمة.

قضى وقتًا أحسه طويلًا طول ليل الشتاء، وهو سارح في خيالاته ما بين ذكرى الحبيبة والهروب من ذكراها، حتى غلبه النوم مرة ثانية دون أن يدري أنه يُغالبه، ولم ينتبه إلا على يد تهزه بلطف ليستيقظ وينتبه إلى النشاط في الخيمة، وكل من كان يعزف سيمفونية النوم الشهيرة ليلا قد استيقظ تمامًا، وابتسامة منير بجانبه:

صحي النوم، ناموسيتك كُحلي.

صباح الخير يا منير، الفجر أذن؟

أذن وإنت آخر واحد تصحى، بكرة هتتعود، فكلنا بنصحى في وقت واحد بدون أن نستخدم منبه، فساعاتنا البيولوجية تعرف الموعد المناسب لتُوقظنا من تلقاء نفسها.

لم يسرد له أمجد تفاصيل ليله، وقام ليتجهز معهم لصلاة الفجر ليخرج من خيمته ويتوضأ، وعندما خرج قابلته برودة جو مختلفة عما اعتاده من برودة شتاء الإسكندرية، وهو يُحب برد الإسكندرية ويتعامل معه كطقس صيفي مشمس، لكن برودة الصحراء مختلفة، جعلته يشعر وكأن جسده قد تحول إلى جسد زجاجي قابل للكسر، ويبدو أن كثرة عددهم في الخيمة جعلها دافئة، فلم يتوقع مثل ذلك البرد في الخارج.

أخذ صدمة البرد الأولى، قبل أن يُزيحها عن كاهله برعشة لم يُخفها جسده، لكنه عندما أخرج الماء ليتوضأ به وجده فاترًا وكأن البرودة أصابت الصحراء جميعها وأغفلته!

توضأ ولحق بهم ليصلوا الفجر في العراء، ويأمهم مأمون، وهو يقرأ القرآن بصوت رخيم يدخل القلب ويسكنه.

بعد الصلاة بوقت قليل، بدأوا في الجري الخفيف مثنى مثنى في طابورين متوازيين قرابة الساعة، ثم تجمعوا في حلقة كبيرة والنور قد بدأ في الظهور ليأتي معه الدفء.

بدأ سامح يقودهم في بعض التمارين الصباحية الخفيفة المتدرجة بعض الشيء إلى العنيفة، وأمجد يجاريهم كأنه كان معهم دائمًا، ينفعه في ذلك جسده الرياضي وقوته البدنية.

وعندما اقترب قرص الشمس من اكتمال الظهور، كان الجوع قد قرص بطونهم، فتوقفت التمارين وعادوا ليجد أمجد أن البدو قد خرجوا وبدأوا يومهم دون أن يلحظ هو ذلك، يجمعون الأغنام بنظام ما، والنساء والأطفال يساعدونهم في ذلك، بينما الحاج

محمد يجلس بطاقيته العالية يحتسي شايه، وقريبًا منه بعض الأكواب الفارغة وكأن الجميع قد أتم شرب شايه ولم يبقَ إلا هو لم يُتمه بعد، أو قد يكون هذا هو كوبه الثاني.

وصلوا إليه فألقى سامح تحية الصباح عليه وتبعوه برفع أيديهم، ورد عليهم هو بابتسامة طيبة وإيماءة بسيطة من رأسه.

عبروه وتوجهوا إلى الخيمة ليجد أمجد الإفطار قد تم إعداده بانتظارهم: بيض، وجبن أبيض، وقشطة مخلوطة بالعسل، موزعة على أطباق عدة.

رفع سامح طبقًا من كل صنف ووضعهم بجانبه، قبل أن يبدأ الجميع بتناول إفطارهم بشراهة شديدة، وأمجد يفكر بخبث أن سامح احتفظ ببعض الطعام بجانبه ليأكله عندما يجوع أثناء النهار، ثم مصمص شفاهه قائلًا بصوت لم يسمعه غيره: "ما هو الريس".

وبعد انتهائهم من إفطارهم قام اثنان من فورهم فخرجا من الخيمة قبل الجميع، وعندما خرج الباقون، ومعهم أمجد، جال ببصره في المكان بحثًا عنهما فلم يجدهما. شغله أمرهما قليلًا ثم نسيهما، وهم يجلسون جلسة صباحية حدثهم فيها سامح قليلًا، ثم قام أحد الشباب معه بعض الأوراق وتحدث حديثًا طويلًا عن الأحداث السياسية التي تدور الآن في مصر.

وأثناء شرحه رأى أمجد شخصين قادمين فتوقع أنهما نفس الشخصين اللذين خرجا من الخيمة قبل ما يقرب من الساعة، لكنهما عندما أصبحا قريبين تذكرهما: الشخصين اللذين تم

تكلفتهما بالمراقبة والحراسة ليلًا، إذًا فقد كان هذا تبديلًا لورديات المراقبة!

ألقيا عليهم السلام فأشار لهما سامح أن إفطارهما في الخيمة، فابتسم أمجد بخجل وهو يتذكر شكه في سامح.

أكملوا اليوم بين تدريبات بدنية، وتدريبات على السلاح، وفي نهاية اليوم كان أمجد يُتقن إطلاق النار وإمساك البندقية بطريقة صحيحة، وكان تصويبه دقيقًا، وأشاد بذلك الجميع وقال لهم سامح إنها موهبة.

وعندما انتهى يومهم كما انتهى سابقه، دخلوا إلى مخادعهم واستقر الحال بهم وناموا، وقبل أن تتبعهم عيني أمجد فينام، تذكر صورة والدته وتشابهها الكبير مع ملامح ليلى، وأخرج الصورة لعل الظلام يكون أخف من سابقه فيراها، لكنه لم يستطع رؤية شيء، فاكتفى بتحسس الصورة ثم أعادها لمكانها، واعدًا النفس بأن يتذكر أن يشاهدها في اليوم التالي ليتأكد من ذلك الشبه المزعوم، لكنه في الصباح نسي أيضًا، ولم يتذكر الأمر إلا بعد نزول الظلام وإطفاء القناديل وخلود الجميع إلى النوم.

ومرت الأيام متشابهة نهارًا ومتماثلة ليلًا، فبالنهار بين تدريبات معتادة وجديدة وأحداث سياسية متغيرة، وتضم عليهم أحيانًا مجموعات أخرى أو يضمون هم عليهم، وفي الليل يسكن الجميع ويسكن أمجد بين محاولات متقطعة من خيالات ليلى أن تهيج عليه ذكراها لينشغل ليله بها، لكنه كان يتغلب على ذلك في أغلب الوقت بطول اليوم وإرهاق البدن، فينام قرير العين.

حتى أتى يومًا وبعدما تناولوا وجبتهم المسائية وشربوا الشاي ودخلوا للخيمة، أمسك سامح كتف أمجد ليلتفت له، فيخبره بأن الوقت قد حان ليخرج للمراقبة ليلًا وأنه سيصحبه هذه الليلة.

خرجا وأمجد لا يعلم كيف سيكمل الليل بلا نوم بعد هذا اليوم الشاق!

سارا في الصحراء بعض الشيء قبل أن يبدآ صعود التبة التي رآها وهو قادم لأول مرة.

وهناك وجد زميليه المكلفين بالمراقبة النهارية يجلسان، واحدًا فوق صخرة مرتفعة، والآخر تحتها وبين يديه شعلة نار صغيرة موقدة وسط حفرة من الرمال.

تبادلا التحية والأدوار، وبعدما كان الظلام ينسدل ببطء، سقط عليهما فجأة بكل قوة، فأصبح حالكًا، والرياح تحمل برودة الليل ليعصف بعظام البشر الذين قادهم حظهم العاثر للمكوث في عراء الصحراء ليلًا.

الصحراء تحب من يحبها، وكذلك ليلها يفعل، فالمحب يرى في ليلها انعكاس الأجرام السماوية المضيئة على صفحتها الصفراء المخلوطة بسواد الليل السرمدي ليخلق نوعًا من السحر لم تتدخل الشياطين في صنعه، ومن يخشاها ويقدم لها الريبة والشك يجد ليلها كغراب أسود في ليلٍ سواده يعادل سواد ريشه ويغلبه.

لولا ذلك البرد القارص بالبدن لتمنى المحبون ليلة بها لا تنتهي، ولجعل العشاق الصحراء بصدقها ملاذًا لعشقهم وليلها قبلة لأهازيج حبهم.

اعتلى سامح الصخرة قبل أن يُخبر أمجد بنظام وردية المراقبة، فأحدهم فوق الصخرة منتبه لأي حركة تكسر صوت الصحراء المميز، والآخر يجلس تحتها يعد على النار ما قد يشربونه ويرتاح استعدادًا لتبادل الأدوار بعد كل ساعة زمنية.

طلب سامح من رفيقه أن يُغمض عينيه ويرتاح قليلًا لعله يتقوى بتلك الدقائق على طول الليل وطول السهر، لكن أبى أمجد أن يفعل ذلك، فحماسة البداية لن تقوده إلى نوم سريع، فأعد كوبين من الشاي وجلس أمجد سندًا ظهره إلى الصخرة يحتسي شايه وسامح فوق رأسه يفعل مثلما يفعل.

تذكر أمجد أمر صورة أمه، فأخرجها من جيبه ليراها تحت أنوار النار المتأرجحة بفعل بعض الهواء المشاكس الذي عرف طريقه للوصول إليها رغم احتمائها بباطن الصخرة، ليرى وجهها اللامع ويدقق في ملامحها، كان الشبه حقيقيًا، نفس رسمة الوجه ودقة الملامح وعذوبة الابتسامة.

ابتسم سعيدًا بذلك الشبه، لكن ما لبث أن تذكر أن القدر لا يجب أن يحاربه فيغلبه، فتغيرت ابتسامته السعيدة إلى بؤس شديد، ولم يرَ في الصورة إلا ألهبة النار المنعكسة عليها وكأنها تتوعده بجحيم يذوقه إذا اشتعل كما اشتعل القلب بحبها.

صورة مين؟

سأله سامح في فضول قبل أن يتبع في مشاكسة:

الحب؟

احمرت وجنتا أمجد وبدت عليه علامات المفاجأة، لكنه أجاب بصوت خالٍ من أية تعابير:

لا، أبدًا... صورة أمي.

طيب، ما هي الحب برضو؟ ولو ماكنتش الحب ماكنتش وحشتك في اليومين دول.

ابتسم أمجد ابتسامة مُنكسرة، وخرجت كلماته بصعوبة وكأنها تُحاول ألا تجد سبيلًا لتخرج:

لأ هي ميتة وأنا صغير، من وأنا عندي خمس سنين.

أنا آسف.

قالها سامح بتأثر شديد، ليرد عليه أمجد بهزة من كتفيه، ويسكتا برهة من الزمن قبل أن يبادر سامح مرة ثانية بالسؤال:

ووالدك؟

ابتسم أمجد ابتسامة ساخرة وكأنه يسخر من القدر:

مات قريب.

لم يتأسف لذلك سامح كما فعل بعد ذكر وفاة أمه، لكنه اقتبس ابتسامة أمجد من على شفتيه.

يعني يتيم...

ثم تبع ذلك بعد مسح هذه الابتسامة:

مثلي.

التفت أمجد إليه ورفع عينيه ليراه قبل أن يقول:

إنت كمان؟

ثم عاد لجلسته الأولى قبل أن يتبع:

الله يرحم أهالينا.

سيرحمهم أكثر إن لم نرحم من قتلهم.

قال سامح ذلك بصوت مغلول وكلمات تخرج من فمه كالحميم المصبوب.

قتلهم؟

سأل أمجد بحيرة، ليرد عليه سامح بتنهيدة ثم بصوت حاول أن يجعله طبيعيًا:

بتكلم عن أبويا وأمي ماتوا مقتولين.

غيّر أمجد من وضع جلسته ليصبح جالسًا بين يدي سامح كمن يصلي يستمع لخطيب فوق المنبر، قبل أن يسأل بفضولٍ قوي:

اتقتلوا؟ إزاي؟ ومن اللي قتلهم؟

أطلق سامح عينيه في العنان طويلًا، قبل أن يخرج تنهيدة حارة ويبتسم بدون اكتراث ليعود بعدها ويمسحها من على شفتيه من جديد، قبل أن يبدأ لسانه في الحديث:

تسمع عن اللي حصل في دنشواي سنة ١٩٠٦؟

تقصد حادثة دنشواي؟

سأل أمجد ليجيبه سامح بإيماءة من رأسه، ليكمل:

أعرفها، كان والدي وصديق له يذكرانها كثيرًا، وكان دائمًا ما يبكي والدي على ذكرها.

تنهد سامح مرة ثانية قبل أن يبدأ بالكلام دون اهتمام بمعرفة أمجد بها ليحكي تفاصيلها بحروف دامية:

كان اليوم شديد الحرارة في صيف دنشواي الساخن سنة ١٩٠٦، وخمسة ضباط إنجليز يصطادون الحمام بالبنادق، التي إن انطلق ما بها من بارود في اتجاه جُرن الغلال لحرقه، فجاء مؤذن القرية صائحًا بهم أن الجُرن قد يحترق، فلم يفهموا ما قاله وانطلقت رصاصاتهم الطائشة لتقتل زوجة المؤذن وتتسبب في حريق يشتعل في جرنه، فتجمع الأهالي فأصاب الإنجليز منهم ثلاثة وفروا هاربين تحت الشمس، والفلاحون يطاردونهم، وهبّ جنود المعسكر القريب لنجدتهم من أيدي أهل البلد، ليصلوا لهم في قرية قريبة من دنشواي، وضابط إنجليزي على الأرض من أثر الشمس وقد ضربته بشدة، وفلاح أصيل يُحاول أن يسقيه، فانهال عليه المجندون بالضرب فقتلوه، ثم أقاموا المحاكمات الظالمة برئاسة بطرس غالي الذي تم قتله لاحقًا على يد مناضل مصري شجاع يُدعى إبراهيم الورداني، وعضوية أحمد فتحي زغلول، ومحامي المتهمين الذي عينته المحكمة إبراهيم الهلباوي، الذي كان لا يدافع عنهم بل كان يذكر كيف قام المتهمون بالتعدي على أسيادهم من الإنجليز... الكفرة.

قالها بصوت شديد الغل قبل أن يسترجع صوته الهادئ ويتبع:

وانتهت المحكمة بقرارها بإعدام أربعة أشخاص على أن يكون الإعدام أمام أفراد أسرهم ليكونوا عبرة لهم ولمن يعتبر، وجلْد اثني عشر شخصًا، والأشغال الشاقة للباقين والبالغ عددهم ستة وثلاثون شخصًا.

سكت قليلًا ليبتلع ريقه بصوت مسموع قبل أن يتبع:

تحرك مصطفى كامل وقتذاك فأقام الدنيا ولم يقعدها في أوروبا، وقاد حملة دولية في فرنسا وألمانيا وإنجلترا نفسها ليفضح جرائم الإنجليز في مصر، وكان نتاج تلك الحملة عزل اللورد كرومر السفاح الإنجليزي وحاكم مصر من منصبه، وسقطت حكومة مصطفى فهمي الموالية للإنجليز، وتخفيف أحكام السجن على باقي المسجونين في القضية.

سند سامح رأسه بيده قليلًا قبل أن يلقي بصوت حزين بيتين من شعر أحمد شوقي:

يا دنشواي على ربـاك سلام... ذهبت بأنس ربوعك الأيام

يا ليت شعري في البروج حمائم... أم في البروج منيّة وحمام

أتم إلقاء البيتين وسكت طويلًا، وأمجد ينتظر أن يتم ما بدأ من الكلام دون رغبة منه أن يُقاطع صمته تحرجًا منه، لكن عندما طال أكثر من احتمال فضوله تنحنح وقال:

وبعدين؟

رد سامح سريعًا بجدية:

وبعدين الساعة بتاعتي خلصت ودورك جه، ولا عايز تطنش؟

ثم أتبع كلامه الجاد بغمزة شقية لا تتناسب مع جدية كلامه، والود في عينيه ظاهر، ليحمر وجه أمجد ثم يقوم من مكانه في حماسه:

لا، مش عايز أطنش، بس تكمل الكلام اللي بدأت فيه.

رد سامح بمرح وهو ينزل من فوق الصخرة:

لأ، هنام، لما أصحى بقى أكمل لك.

ضرب أمجد قدمه في الأرض كما يفعل الأطفال، قبل أن يكبح فضوله ويصعد ليعتلي الصخرة، وتقابله الريح التي حجبتها بعض الشيء عنه من قبل، وسامح يوجهه من أسفل منه على نقاط المراقبة الهامة التي يجب أن يكون تركيزه موجهًا إليها دائمًا.

أسند سامح ظهره إلى الصخرة، وانشغل أمجد بالمراقبة الجادة قبل أن يعتاد عليها، ليسأله سامح بعدها بقليل إن كان يحتاج إلى شاي، فيجيبه بنعم، فيعد لهما كوبين من الشاي وعندما أخذ أمجد كوبه، استرخى مكانه وبدأ احتسائه ساخنًا في تلذذ والكون ساكت من حوله.

أبويا كان من الأربعة اللي تم قتلهم في المحاكمة.

كسر سامح سكوت الليل بهذه الجملة ليشحذ كامل انتباه أمجد الذي اكتسى وجهه نظرة ذهول وإشفاق، قبل أن يُكمل سامح بعد أن عرف أنه حصل على انتباه أمجد:

كان عندي سنة وشهرين، وأقاموا حكم الإعدام وأمي تحملني وتغطي عيني كي لا أرى ذلك المشهد، لكن عندما سقط أبي من المشنقة رفعت يدها ورأيت كل شيء. لا أتذكر كل ذلك لكنهم أخبروني ذلك عندما صرت فتيا، قالوا لي أنني نظرت ولم أبكي ولم أصرخ ولم أبدي أية ردة فعل إلا نظرات رعب علت وجهي وكأنني أفهم ما يدور حولي، والصراخ والبكاء والعويل يسد أفق السمع فلا يُسمع على بُعد أميال شيء غيره.

وبقيت على حالتي هذه وتلك النظرة على وجهي شهرين إلا يومين، أخذوني فيها لشيخ المسجد ليقرأ ما تيسر من القرآن على جسدي ويرقيني لعلي أفوق من المس الذي أصابني حسب ما يعتقدون أنه قد حدث، لكن حالي لم يتغير.

وبعد ثمانية وخمسين يومًا من الحادث بالتمام والكمال ماتت أمي حزنًا وكمدا على زوجها وأهل قريتها، وكانت قد مرضت مرضًا شديدًا منذ ذلك اليوم حتى أنها لم تقوَ أن تُلقمني صدرها من بعد قتل أبي، ويوم ماتت انفك المس المزعوم عني وانفك لساني ودموعي فنطقت وبكيت.

قال الشيخ وقتها أن الجان الذي مسني رحل مع روح أمي إشفاقًا على حالنا وحالي.

رحلت أمي لتلحق بزوجها في الجنة وتركّتني مفطومًا منذ شهرين إلا يومين، وتركّت معي أخًا يكبرني بخمسة أعوام وأختًا تصغره بعامين.

تنهد سامح تنهيدة طويلة وركن ظهره إلى الصخرة وسكت، بينما فرت دمعة من عين أمجد لتجد مجرى لها نحو قلبه ليشعر بلسعة

باردة وارتعاشة خفيفة تشمل أعضاءه. شعر بالأسى الشديد لحال سامح وإخوته وعرف أن لا كلمات قد تواسيه فآثر السكوت احترامًا لسكوت صاحبه.

كيف يقوى الإنسان على أن ينزع أرواح الآخرين بدون أن يطرف له جفن؟ كيف يُحب البعض أن يشتغل ما يشتغله ملك الموت فيكون طريقًا للهلاك؟ لماذا يتركنا الله لنفسد في أرضه دون رادع إلا تجبر بعضنا على بعض؟ ماذا يعلم الله من علمٍ لا نعلمه يجعل سامح وإخوته يُيتمون وهم صغار تحت وطأة بطش المحتل وظلم الوطن؟ أين أنت يارب لتُقيم عدلك في أرضك ولا تتركنا للكلاب المسعورة تنهش في أجساد عبادك؟ أين أنت يارب؟ أين أنت يارب؟

ارتفع صوت هذيان أمجد قليلًا ليكون مسموعًا بعض الشيء، لتلتقطه أذن سامح وبصوت خفيض يردد معه:

أين أنت يارب؟ أين أنت يارب؟

قبل أن يشبك كلماته بكلمات جديدة:

أين أنت يارب ونحن نعيش في كنفك، نرى الباطل في كل مكان فنستمد الطاقة من نفخة روحك فينا لنكون ثائرين من أجل الحق والعدل؟ أين أنت لترى عبادك جعلوا أنفسهم فداءً للخير الذي أنزلته على آدم لتتوب عليه؟ أين أنت لترانا ونحن نقتص من قتلة عبادك بقتلهم وتشتيت جمعهم وبث الرعب فيهم وفي أهلهم؟

أعرف أنك ترانا الآن ونحن نحرس في سبيلك، وأملنا أن تُحرم عيوننا على النار كما أرسلت لنا على لسان نبيك المصطفى، وأعرف

أنك سترانا حينما نُطلق الرصاص بأمرك لندمي قلوبًا حاربت أهلك وظلمت وبطشت بالضعفاء والمساكين.. المساكين أهل الله.

كان سامح يتحدث ويرفع صوته شيئًا فشيئًا حتى أصبح حديثه كما الهتاف، بينما يشعر أمجد بتلك التغيرات التي تحدث في قلبه، ويشعر سامح بذلك أيضًا بإحساس خبير فطن. لقد أصبح أمجد مهيئًا للقتل من أجل الحق.

القتل من أجل الحق؟ القتل صنعة واحدة يتبعه الكثيرون بحجج مختلفة، وللحق راية واحدة يدعي الجميع رفعها مهما كانت رايته راية باطل، الإنسان لئيم.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقه اتباعه، وارنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

أنا هنا لأحرر أرض مصر وأجلب الحرية لأهلها مهما كانت التضحيات وسأفعل كل ما يجب أن أفعله من أجل ذلك.. وسيعرف الظالمون أي منقلب ينقلبون.

قالها أمجد بحماس شديد وصدق، ليبتسم سامح وهو يعرف أنه بدأ يتأقلم مع المهمات التي قد يُكلف بها قريبًا، قبل أن يرد بحب الصديق:

أنت لها، عرفت ذلك من ملامحك أول مرة رأيتك فيها، خُلقت لتكون للحرية نصيرًا.

نزل أمجد برأسه قليلًا في اتجاه سامح وقال بعزم:

سنأخذ بثأر من قتل والديك.. أو أموت دون ذلك.. أعدك.

ضحك سامح ضحكة عالية، قبل أن ينظر إلى أمجد نظرة لا مبالاة:
ستأخذ بثأر أبي وأمي؟ وماذا عن قتلة أخي؟
أصابت أمجد الصدمة وأصابت عينيه الدهشة وفغر فاهه في ذهول، وبعدما استفاق قليلًا ضم ساقيه على صدره وأسند ذقنه عليها والذهول من هول مأساة سامح تشل لسانه، فلم يسأله حتى عما حدث لأخيه.

وانتهت الساعة فنزل دون أن ينبس ببنت شفة وسامح يراقبه بتفحص وهو يصعد ليحل محله، وعندما يستقر به الحال أعلى الصخرة، يلتف أمجد بذهوله ليجلس ضامًا ساقيه إلى صدره كما كان يفعل وظهره مستند إلى الصخرة وكأن الحزن سقط عليه فجأة فأخرسه.

كان مذهولًا من فاجعة سامح ولم تشغله هذه المرة تفاصيل القتل والقاتل، شغله الإنسان الذي يرحل ليترك قلوبًا مكسورة ونفوسًا حسيرة وأرواحًا تملؤها الفواجع.

رآه سامح في حالته تلك فأراد أن يُخرجه منها قبل أن يستولى به الإحباط فيلقيه في غيابات ظلمته فلا يستطيع أن يُخرجه منها، أراد أن يحول إحباطه لطاقة موجهة نحو العدو المشترك.. بهما وبمصر،

فبدأ يحكي بدون طلب ليشحذ انتباه أمجد بالتدريج:

لم يستطع جدي تحمل الأرض التي قُتل فيها ولده الوحيد وزوجته، فقرر أن يفعل ما لم يخطر على باله قط، قرر أن ينسلخ عن أرضه ولا يعود إليها أبدًا، فحملني على كتفه نمشي في المقدمة

ووراءنا جدتي تتشح بالسواد ودموعها تروي كل أرض تمر بها، وهي تحمل صرة بها بعض ما نعتاش به من مأكل ومن ملبس، وأخي محمود يمسك يد أختي عائشة ويمشيان بينهما. خرجنا في سواد الليل دون أن نودع أهلًا أو أحبابًا، لم يكن جدي يريد أن تلتقي الأعين بالأعين ويسمع منهم ما سوف يسوقونه من كلام فتضعف همته ويبقى متعلقًا بين حزنه وقلة حيلته في قرية لن يرى فيها إلا جثمان ولده وصرخات أرملته والظلم الذي امتزج مع الأرض بعدما ارتوت بدماء أهل قريته. رحلنا متشحين بالسواد كأننا نفر بعارٍ يلاحقنا، وركبنا ونزلنا حتى وصلنا إلى القاهرة في اليوم التالي والتيه يميزنا عن أهلها، والخوف يسيطر على إخوتي فمسكا في يد جدي الذي لم يتعب من حملي، وجدتي تتحصن به من حيرتها وهول ما تراه في فسيح القاهرة وضخامة وفخامة مبانيها وقاطنيها. مشينا بلا هدف، يسأل جدي كل من يقابله إن كان يعرف أين قد يجد عملًا، فيتجاهله الناس ونظرات الاستغراب أو التكبر تلاحقه، حتى تملك كل تعب منا، فجلس جدي على مقهى قابلنا وأنا نائم على رجله والهم يسكنه ويده على خده والأفكار تشاغله إن كان قد أخطأ بالرحيل عن أهله والله يعاقبه الآن! بينما جدتي افترشت الأرض تحت قدميه وعائشة في سبات عميق بين ذراعيها، بينما محمود يجلس على المقعد بجانب جده يقاوم التعب والنوم ليكون كما الرجال. وعندما بدأ الليل زحفه السرمدي والطرقات تبتلع الناس ليختفون ولا يعودون، بدأ الكون يضيق علينا وعلى جدي أكثر فأكثر، وعندها ظن ألا مخرج مما نحن فيه إلا الالتجاء إلى الله، فحمل همه وذهب إليه يدعوه "أنا مسنا الضر وهو أرحم

الراحمين"، وهو مشغول بدعائه لم يلحظ ذلك الرجل الجالس في طرف المقهى والمشغول به بدوره، يدعو الله والله يشغل عباده به ليجب دعاءه من خلالهم. أتانا ذلك الرجل وتقدم نحو جدي والتساؤلات في عينيه، وسأله إن كان غريبًا، فمظهره يوحي بأنه من أهل الفلاحين ويبدو عليه التيه، وعلى صحبته التعب. فحكى له جدي الحكايات دون أن يذكر ذكرى ما حل بولده وامرأته، فأشفق عليهم الرجل الطيب وعرض عليهم المبيت في حجرة ملحقة ببيته، فشكره جدي ولسانه يلتهب بحمد الله كما تفعل الطيور مساءً عندما ترجع لبيوتها ممتلئة البطون. ذهبنا معه وبتنا تلك الليلة بين خوف من القادم ورجاء في المستقبل وتعب السفر، وفي الصباح أتى الرجل الطيب فبشر جدي بعملٍ كبواب لإحدى العمارات القريبة بمرتب معقول وسكن مؤمن، وكانت بشرى. أقمنا في غرفة وتأقلمنا على حياتنا الجديدة تدريجيًا ونسينا ونسى جدي وجدتي قريتنا، إلا محمود لم ينسَ ذكر دنشواي وما حصل فيها أبدًا. كانت جدتي تساعد بعض السيدات في العمارة التي يشتغل بها جدي، وتأخذ مقابل ذلك أجرًا تساعد به في تعليمنا وكسوتنا، أخذ محمود شهادة الابتدائية بتفوق، لكنه توقف عن الدراسة بعدها توفيرًا للنفقات حتى يستطيعون تعليمي تعليمًا يليق بما يأمله لأخيه الصغير، وبدأ العمل في أحد محلات العطارة الكبيرة وأمن له ذلك العمل الرجل الطيب الذي أمن لجدي العمل من قبل، وكان عملًا مربحًا ساعدني أن أحصل على تعليمٍ لم يحصل هو عليه، وأن نجهز عائشة عندما تم خطبتها لأحد الشباب الطيبين، وبعد عرسها ورحيلها مع زوجها ماتت جدتي دون أن تشكو علة وكأنها

قد أتمت دورها بزواج حفيدتها فرحلت بدون صخب، وبعدها بسنتين مرض جدي مرضًا شديدًا ولزم فراشه، وكان دائمًا ما يمسك يد محمود ويقول له "ارجع عن اللي في بالك وخد بالك من أخيك".. لم أكن أفهم مقصده، لكن الحال لم يكن يسمح بسؤال طويل واستفسار عريض، ولم يطل المرض بجدي فرحل هو أيضًا بعدما اشتد عودنا ولم أخيب ظنه في، فدخلت كلية الآداب وتخصصت في التاريخ لأعلم تاريخ بلدي وتفوقت في ذلك، وبعد رحيله أخذنا شقة في العمارة التي كان يعمل بها، وتركنا الغرفة لبوابٍ جديد ساقه الحظ ليخلف جدي، وبعد فترة بدأ محمود التغيب الكثير والسفر الطويل بحجج جلب بضاعة لمحل العطور بعدما أصبح الساعد الأيمن لصاحبه، وفي عام ١٩٢٧ وامتحانات آخر سنة لي في الكلية تشغل وقتي، غاب محمود وطال غيابه عن المعتاد، وزاد قلقي عليه حتى بت لا أقوى على تذكر أو درس، وأتممت امتحاناتي لأحصل على أقل درجات حصلت عليها طوال دراستي، وأنا أمر يوميًا على صاحب المحل لأسأله عليه فيطمئنني والقلق بادٍ على قسمات وجهه، وبعد ثلاثة أشهر من غيابه، أتى صاحب المحل لزيارتي وهو لم يفعلها من قبل وأخي موجود، فعلمت الخبر بدون أن يخبرني به، وأعطاني رسالة تركها محمود ليعطيها لي إن أصابه القدر بسهامه الغادرة.. قرأتها عشرات المرات ودموعي تجري مني حتى جفت مقلتاي وقاربت على الهلاك، حفظت كلماتها وجعلتها وكأنها كتابي المقدس.. قال لي فيها بالنص:

"أخي الحبيب، لقد اختارنا القدر لنكون فداءً للوطن حينما أخذ منا من نحمل اسمه، ومن أرضعتنا ثدييها على أرض دنشواي بأيدي أناس اعتبروا أنفسهم فوق البشر، واعتبرونا كالبهائم يقتلون فينا ما شاءوا ويتركوننا ما شاءوا. كنت صغيرًا أنت ذلك اليوم، لكني كنت واعيًا وعاهدت روح أبي وقتها لأنكل بمن قتله، ولو بعد حين. وقد أتتني فرصة فعل ذلك، فلم أرضَ بأن أكون كحمام دنشواي يصطاده اللاهون، أو كأجران القمح يحرقني لعبهم، وقررت أن أكون صقرًا يصطاد فيهم ونارًا تحرق قلوب أهاليهم عليهم.

أخي الحبيب، كن نعم الأخ لعائشة فليس لها أهل غيرك، وكن نعم الابن لمصر فليس لك من بلد سوبها، وكن كما الجبل لا تحني ظهرك لأحد قط، واعلم أنه لا حياة لحر بلا كرامة، فكن حرًا.

أخي الحبيب، عندما تقرأ كلماتي تلك، سأكون قد رحلت عنك، فلا تحزن، فقد عشت من أجل أن نحيا أحرارًا أو نموت كذلك، ولا حرية بدون دم يأتي بها، فكن جلدًا فالحياة إلا ساعة.

أخي الحبيب، أحبك."

أنهى سامح إلقاء رسالة أخيه، ولم يستطع مغالبة دموعه فانسابت من عينيه في صمت، وأمجد في الأسفل يشاركه دموعه، لكنه يتمالك نفسه ليسأل بإجلال:

كان يناضل ضد الإنجليز؟

أومأ سامح برأسه إيجابًا ردًا على سؤاله قبل أن يُضيف:

أتاني صاحب محل العطور مرة ثانية بعدها ليخفف عني وليجيب تساؤلاتي التي لم تحملني نفسي لأحملها لأي مكان. عرفت منه أنه

تعرف على أحد المناضلين وانضم لركبهم، ثم ادعى أنه لا يعرف شيئًا عنهم، لكنه كاحترام للعشرة ولما هو مقدم عليه حفظ سره واستمر في دفع راتبه، لكن بعد ذلك عرفت أنه يعرف كل شيء وهو من دله على هذا الطريق، وتجارته الرائجة يدعم بها المناضلين. فبعد زيارته لي بأسبوع عزمت أمري وذهبت إليه لعله يدلني على خيط أتبعه لأصل إلى المناضلين وانضم إليهم. وعندما رأى الصدق والعزيمة في عيني، خلع ثياب الجاهل وأخبرني عن محمود مع مجموعة من ثلاثة لينفذوا عملية ضد الإنجليز، ونجحوا في إلحاق خسائر فادحة بالعدو، لكن لم يرجع من المجموعة أحد. وجاءت الأنباء لاحقًا أنهم قُتلوا أثناء انسحابهم من المكان.

تنهد سامح قبل أن يُكمل:

كان رجلًا عندما كان جميع من في سنه أطفالًا، وكان رجلًا عندما كان الذين يفوقونه في السن يحاولون تعلم الرجولة ويفشلون. وعندما رأيتك تذكرته.

التفت إليه أمجد بدهشة قبل أن يسأله:

تذكرته؟ لماذا؟

ابتسم سامح في ود لا يُحاول إخفاءه وحنين بادٍ على قسمات وجهه قائلًا:

تشبهه، نفس نظرات العينين القوية المشوبة بالحزن، ونفس الطول وطريقة الكلام، والملامح قريبة الشبه به، وعندما تنام تضع قدميك المفرودتين فوق بعضهما. رأيتك وأنت نائم بهذا الشكل ووقفت مشدوهًا، فلم أرَ أحدًا يفعل ذلك أبدًا إلا أخي.

تورد وجه أمجد بفرح وخجل، ووقف ممدًا يده إلى سامح ليمد الآخر يده بتعجب إليه، فيصافحه بقوة ويشد على يده قائلًا:

أنا أتشرف بمعرفة شخص مثلك، ويسعدني أن ترى في شبهي أخاك البطل، ولا أرغب إلا أن أكون كما كان.

تهللت أسارير سامح في سعادة من حديث أمجد:

أنت بمثابة أخي الأصغر، وفي غلاوة أخي الأكبر.

أدى أمجد التحية العسكرية وهو يقول بطريقة مرحة:

تمام يا فندم.

قضيا ليلة المراقبة في حديث ذكريات شيق جعل الليل الطويل يمضي سريعًا، فالأوقات الجميلة تهرب منا لتترك خلفها الأوقات الحزينة لتمكث فوق قلوبنا أطول وقت ممكن.

وبعد أيام... حان وقت الإجازة والعودة إلى الإسكندرية، مدينة الحب المعقود والآمال المقطوعة.

"٥"

العودة إلى الإسكندرية

الإسكندرية مدينة سحرية لمن يؤمن بالسحر، لا يخرج منها أحدهم إلا ويغالبه شوق الرجوع إليها، اعتادت على سرقة القلوب وامتلاك الألباب والأبصار، وكان أمجد من عشاقها الكثر، فقد غلبه الحنين إليها وهو في طريق العودة، وصدره ضاق بوقت الرحلة واستطالته، وسبقه قلبه إليها بالرغم من أنه كان لا يريد أن يعود، ولم يفعل ذلك إلا تحت إلحاح أصدقائه أنه يجب أن يرتاح قليلا من روتينه اليومي، وأنه يحتاج إلى تلك الإجازة القصيرة.

رحل دون منير، وهو لا يعلم لماذا يفعل ذلك وقد أنس بأصدقائه الجدد وأنس بهم، وليس له في الإسكندرية ونيس، لكن الإسكندرية وإن لم يسكنها حبيب فهي تستحق الحنين والعودة.

حبيب؟ لكنها يسكنها حبيب وإن حاول إنكار ذلك، استحلفه منير ألا يذهب للمستحيل ليراه فيراقصه برقصة الامتناع عنه، فيشعل القلب بعد براء، لكنه لم يكن يعلم أن القلب مازال سقيمًا بحب مستحيل وكأنه لن يبرأ منه أبدًا.

وصل القطار إلى الإسكندرية والشمس في بداية رحلتها نحو الغروب، وعندما وضع قدمه على أرض الإسكندرية وملأت رائحة البحر رئتاه، استولت عليه ليلى فلم يقاومها وترك ساقيه تحملاه إلى محل والدها الساعاتي في محرم بك، وعندما رآها في ركنها تنيره

كما هي العادة، لم يلحظ حزنها أو هروب روحها، فقط شعر بتلك السكينة التي سرت في جسده مع ارتعاشة خفيفة، ودقات قلبه تعلو ليسمعها كأنها تدق بجانب أذنه، تأملها قرابة الربع ساعة دون أن يشعر بمرور الوقت، حتى إذا رفعت عينيها لتقع عليه، اتسعت ابتسامته، فأشاحت بعينيها عنه فسقط قلبه واعتصره الألم، لكنها لم تلبث إلا أن رفعت عينيها إليه مرة أخرى، وابتسمت، ابتسمت لتعود ابتسامته، ويتراقص قلبه.

كم هي غريبة تلك الدنيا التي تجعل الإنسان يتحول من قمة الشوق إلى قمة الألم ثم إلى قمة السعادة في دقيقة واحدة!

تمسك أمجد بابتسامتها المشرقة ورحل قبل أن تغير رأيها وتُسحبها عنه. اكتفى بها، فلو كان الإنسان لا يملأ عينيه إلا التراب، فابتسامة ليلى تملأ كل العيون.

وصل إلى البيت ليهاجمه تعب السفر وينام من فوره، وعندما أشارت الساعة للعاشرة ودقائق قليلة، رن جرس الهاتف ليستيقظ على صوته من نومه الهانئ، وببطء يرد عليه، لتنساب أنفاسها العطرة إليه، ووراء أنفاسها صوتها الرقراق وهي تقول تلك الكلمة التي تمنى سماعها وإن كان بعدها هلاكه، لتستيقظ كل حواسه دفعة واحدة، وقبل أن يُجيبها بالمثل، أُغلق الخط!

استمر في التحديق وهو لا يعي إن كان حلمًا جميلًا أم واقعًا أجمل، وبعدما تأكد أن ما هيأ له حدوثه قد حدث بالفعل، وقف كالمجذوبين يقفز ويرسم علامات النصر، وعندما هدأ قليلًا واستوعب الأمر قام فاغتسل من السفر، وانتشى بدنه كما انتشت

روحه، ونزل ليقضي ليله في فرحة في طرقات الإسكندرية وعلى شاطئ البحر المهجور في ذلك الوقت إلا من هياج كهياج قلبه، وصلى الفجر في ذلك المسجد الذي يُصلي به عم محمود، وجلس معه بعض الصلاة ولم يحكِ له شيئًا ولم يسأله هو عن شيء، لكن عم محمود وجد علامات البشر على وجه أمجد فاستبشر ودعا له من قلبه أن يرزقه الله من سعادتي الدنيا والآخرة.

وعندما بدأت الشمس في الاستيقاظ، اتخذ أمجد طريقه إلى طريق حبيبته وانتظر بشوق، والدقائق تمر كساعات، وعندما رآها قادمة بإشراقتها التي لا مثيل لها، قام بثقة جديدة وبثبات المحبين، وقال لها ما قاله، وردت عليه بمثله، ففتحت في كتب العشق فصولًا جديدة ليملأها معًا، وبدايات طريقٍ لم تطأه قدمٌ قط يسيران فيه سويًا، ولوحت فنية يرسمانها بقلبين اشتاقا للمس بعضهما البعض كما لم تشتاق قلوب أبدًا.

ركبت سيارته وأخذها ورحل بها وكأنه يفر من دنيا البشر ليأخذها لدنيا أخرى لا يسكنها سواهما، وعند مكان بعيد على شواطئ الإسكندرية توقف وترجلا، ونطقا بعد صمت دام طول الطريق وأيديهما تتحدثان وتنقلان المشاعر والشوق والأحاسيس دون استخدام الألسنة. أخبرته وأخبرها دون كلام يصعب أن يصف كل ما يختلج في الصدور كما يحق له أن يصف.

مر عبر سور قصير وحملها من خصرها لتعبره هي بدورها، وفرش لها على رمال الشاطئ الذهبية لتجلس بجانبه وهو يمسك بيدها وكأنه يخاف أن تهرب منه كما تهرب الأحلام من حالمها. انفك

قلبيهما ولسانيهما فحكى لها وحكت له، وكأنهما تقابلا آلاف المرات من قبل، ألفته وألفها، ووجد كل منهما سكناه في الآخر، فسكنته وسكنها، فتركت نفسها له ليضمها إلى صدره لتعرف كيف تعذب هذا الشاب المُحب بحبها، ويعرف هو ما أخفته تلك الابتسامة من حبٍ له حرق فؤادها النضر قبل أن تشفيه ضمته.

نسيا الدنيا من حولهما حتى إذا أسلم اليوم روحه لبارئه، انتفضت من حضنه صائحة:

أبويا!

تفاجأ أمجد وسألها وكأنه من كوكب آخر:

ما له؟

أنا ما رحتش المحل، طبعًا هيكون قلقان عليا، أنا نسيت خالص.

قالتها باضطراب بالغ قبل أن تغير لهجتها وتلكزه في كتفه وبالدلع تكمل:

نسيت في حضنك الدنيا!

ضحك وضمها بشدة وكأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه فلا تخرج أبدًا، لتوقفه تأوهات تخرج منها لقوة ضغطته عليها المبالغ فيها.. فيفكها قائلًا:

تعالي هوصلك بسرعة، وإن شاء الله خير.

ذهبا وقلقها لم يمنعهما أن يتضحا كانا طوال الطريق وكل السدود بينهما انهارت وكأنها لم توجد أصلًا.

وقبل المحل بقليل، نزلت من السيارة مودعة له بضغطة على يده، وسارت مسرعة باضطراب ورأسها يخترع الأعذار التي قد تسوقها لوالدها، وعندما أصبح المحل في مرمى البصر، وجدت أباها يقف أمامه متلفتًا في قلق، فهرولت، وعندما وصلت إليه ورآها رأت غضبًا على وجهه لم ترَ مثله على قسمات وجه أبيها الطيبة قط، جرها للداخل من يدها وسألها بغضب شديد أين كانت؟، فأجابته بلسان متلعثمٍ أنها استيقظت فلم تجد في قلبها رغبة في المكوث في المحل، فتركت ساقيها تسوقانها في شوارع الإسكندرية قليلًا قبل أن تأتي، لكن الوقت سرقها فلم تشعر بنفسها إلا والشمس تركض لتذهب لمخدعها فهرولت إلى هنا لا يهمها إلا قلقه عليها، وأنها لم تكن تنتوي أن تغيب كما غابت، لكنها لم تشعر بالوقت.

تغيرت ملامح الوالد من الغضب للحب الجارف، واحتضنها:

قَلِقْتِيني عليكِ أوي.

أنا آسفة.

مالك يا ليلى، ماذا يشغل تفكيرك وبالك؟

لا شيء، أحب الاختلاء بنفسي قليلًا هذه الأيام، لكني بخير.

أطلق طفلته من بين ذراعيه وهو يشعر بأن روحها وكأنها عادت إليها، غير مصدق لكلماته الأخيرة، لكن قلبه سعيد بما لمسه من سعادتها. وأغلقا المحل في الموعد وعادا إلى البيت وليلى تمشي متقافزة وكأن الأرض قد فقدت جاذبيتها تحت أقدامها فأصبحت تطير طيرًا، وعندما خلد الجميع إلى النوم انفردت بحبيها على

الهاتف، فتناقلا الأحاديث بين حب وشوق وعشق، وحياة يملكان منها مئات التفاصيل ليحكاها معًا.

عندما تركها أمجد مساءً كان قد قرر واستقر. يومٌ معها كألف ألف يومٍ بدونها، لن يتركها وإن حارب الدنيا فسيهزمها. ذهب واغتسل ونام سويعات قليلة قبل أن يستيقظ دون مُنبه قبل دقيقتين من اتصالها. وعندما سمع صوتها عبر الهاتف أخذته ارتعاشة الحب فاشتاق كما لو أنه لم يرها منذ سنة. ومر الليل سريعًا عليها لتنام عينيهما من كثر التعب وطول اليوم فيُغلقا الهاتف ليستزيدا بسويعات قليلة من النوم. واستيقظا وطول السهر بادٍ على أعينهما فيتقابلان ويتناولان الإفطار معًا. ويجلسان على الشاطئ حتى الساعة الواحدة ظهرًا، لينهيا جلستهما على مضض. ويُعيدها قريبًا من المحل فتترجل ويمر اليوم في اشتياق إلى ليلهما، والليل في اشتياق إلى صباحهما.

وقرر أنه بعدما سكنته حبيبته، لا يجب أن يعود إلى الصحراء مرة أخرى. لا يجب أن يترك ليلى، حبيبته.

يتغيّر الإنسان سريعًا.

مرت الأيام وحبهما يُطفي على الإسكندرية إشراقة مختلفة. الحب في أي مكانٍ يخلق حياة.. والحب في الإسكندرية يخلق حيوات كثيرة، وحبهما كان ممتزجًا ببحر الإسكندرية امتزاج الشاي الأخضر بالماء الساخن، بين نضارة قلبيهما وسخونة العشق.

وبالحب غاب الصديق عن صديقه، وتقاعس أمجد عن الرجوع لمن ألفهم وألفوه. فلما زاد الأمر قلقوا عليه وسافر منير إلى الإسكندرية لتقصي الأمر، والقلق يسبقه.

وصل القطار صباحًا فاتجه من فوره إلى بيت أمجد، وعندما لم يجده فيه انتظره أمام الباب حتى غلبه النوم من تعب السفر فنام. وعندما عاد أمجد وجد جثة متكومة أمام باب بيته فهزها ليجده صاحبه.

منير، إيه اللي منيمك كده!

لم يعر منير انتباها لسؤاله.. وبادره بسؤال آخر:

أنت فين؟ كويس؟

آه، كويس جدًا وعندي أخبار سعيدة أوي.. بس إيه التعامل الميري ده؟ هات حضن يا ولد.

تعانقا، والتساؤلات والشكوك تحوم حول رأس منير. وقرر أن ينتظر ليخبره أمجد الخبر.

دلفا إلى البيت وأعد أمجد طعامًا سريعًا، وأكلا، وبعد ذلك جلسا في حبور يحتسيان الشاي ومنير ينتظر صاحبه ليبدأ بالكلام، بينما أمجد لا يعرف من أين يبدأ.

أنا قابلت ليلى.

يا سلام.. وإيه اللي حصل؟

طلعت بتحبني هي كمان.. واتصارحنا واتواعدنا.

لم يستطع منير أن يمنع لهجة السخرية أن تظهر على لسانه وملامحه وهو يسمع ذلك:

اتواعدتم بإيه؟ هتتهود أنت ولا هي اللي هتسلم!

تجاهل سخريته وأكمل:

هنتجوز.. مهما رفضوا، وهي بتقول إن باباها هيوافق وإن المشكلة في مامتها، ومتأكد إننا هنقدر نقنعها.

بدأ وجه منير في الاحتقان من الغضب:

وبالنسبة للناس اللي استأمنوك على سرهم، مش هترجع معايا عشان تكمل معانا؟

سرهم هنا.

وأشار إلى قلبه قبل أن يُكمل:

أنا عشت معاهم أيام عمري ما هنساها، بس مش هقدر أسيب ليلى وأرجع معاك.

ثار منير وبدأ صوته في الارتفاع:

هتسيب المقاومة عشان واحدة ست؟ عشان بتحب!

اهدأ شوية، ودي مش واحدة ست قابلتها على ناصية شارع. دي حب حياتي اللي عمري ما تخيلت إنه موجود في الدنيا، دي خيالاتي وأحلامي وثوراتي.. حاول تفهمني.

اللي فاهمه حاجة واحدة إنك بعت، بعتنا بالرخيص.

انفعل أمجد من هجوم صاحبه لتتطاير الكلمات الغاضبة منه:

أنت ما بتفهمش! أنت ما بتحسش! تغور المقاومة على الإنجليز على كل الناس وليلى تفضل في حضني، ولا حد يلزمني في الدنيا دي غيرها أصلًا.

تلوّن وجه منير بألوان غضب فاقعة، والصدمة بادية على وجهه. ليقوم من فوره ويخرج من البيت دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يحاول أمجد أن يمنعه.

كان منير مصدومًا في صديق عمره، ونادمًا على وثوقه به وضمّه لصفوف المقاومة ليكون الآن عبئًا عليها ويتشكك الجميع في أن يشي بهم. وكان يعرف أنه إن تم اكتشاف أمر بعضهم في أي حادثة ستطول سهام الشك أمجد على الفور، وستكون تصفيته حتمية.

كان يعرف أصالة أمجد لذا كانت صدمته، وكان يعرف أيضًا كم التوبيخ الذي سيحصل عليه لأنه أتاهم بشخص لا يُعتمد عليه.

لعن اليوم الذي أشرك فيه أمجد أمرهم، ولعن اليوم الذي عرف فيه أمجد.. وذهب إلى بيته ليخاصمه النوم من التفكير والغضب.

ولم يكن حال أمجد بأفضل من ذلك، كان مصدومًا في كون صديقه لا يُقدر مشاعره وحبه، وتلك الفتاة التي خلقت من حياته حياة.. بعد موت. كان غاضبًا من كون أنه الشخص الوحيد الذي كان يتوقع أن يحمل له فرحًا لفرحه بعد وفاة والده، فكيف يجعل من أفراحه وسعادته أمورًا هامشية يسخر منها ولا يكترث بها!

كان مُحنقًا حتى أن مكالمته الهاتفية مع حبيبته لم يكن بها ولهًا كما عادتهما، ولم يخبرها بشيءٍ لأنه يعرف أن كل تلك الأمور أمانة

يحملها في عنقه ولا يُخبر بها أحدًا حتى لو كانت صفيته وحبيبة قلبه.

ومر يومان عليه وهو على هذا الحال، بين حنقٍ وغضب وضيق. وبعدما ضاق على صدره الحال قرر أن يذهب إليه ويتصافى معه ويُوضح له الأمور ويسترضيه.

فقام بتوصيل ليلى إلى المحل واتجه إلى بيت منير وقلبه يدق بصوت مرتفع. وصل ونزل من سيارته وتجاوز درجات السلم في قفزات سريعة، ليدق الباب وينتظر.. ويدقه وينتظر.. لكن لا مُجيب.

انتظر في سيارته ساعات لعل منير يظهر عائدًا إلى بيته.. لكنه لم يعد!

منير سافر.. تركه ورحل.

وعندما نزل الليل، رجع إلى بيته مهمومًا نادمًا، وتحدث في الهاتف مع حبيبته ليلًا طالبًا التسلية عن همه، فلم يُسرَّ عنه. وقبل إنهاء المكالمة، قرر أن يسافر إلى الصحراء ليشرح الأمر لسامح ويسترضي صديقه، فأخبر ليلى أنه سيسافر لشأن مهم يتعلق بأقرباء له أوصاه بهم والده قبل موته، ولن يغيب أكثر من أسبوع. فبكت، وقضت ليلها باكية حتى الصباح. أما هو، فعندما بدأت أنوار الصباح في شق قلب الليل، كان بالقطار في رحلة قام بها مرة واحدة من قبل.

اتبَّع العلامات في الصحراء كما عُلم، ووصل إلى هدفه المنشود مساءً. قوبل بترحاب وفتور وبعض التوجس، وتجَنَّبه منير تمامًا، فلم يُحادثه أو ينظر إليه. وعندما هدأ شرر الغضب عنه وبدأت

القلوب للسكون قبل نومها، ذهب أمجد إلى منير ليحادثه، فتَبِعه سامح. وقبل أن يتحدث، وضع يده على كتفه هامسًا له:

الصبح، الصبح ليه عينين؟ بلاش كلام النهارده، بكره نقعد ونتكلم.

نظر إليه أمجد في حرج، ودون أن يُجيبه، اتجه إلى مكان نومه واتخذ من تعبه غطاءً ونام.

وحينما تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، قاموا من نومهم وصلوا الفجر، وهدأت النفوس بعد تعب، وتسامحت بعد غضب. فأخذ سامح الصديقين أمجد ومنير في ركنٍ هادئ ليتحدثوا جميعًا بعدما منعهم في الأمس من الحديث حتى يزول عنهم تعب اليوم فيصبحون أكثر تسامحًا وصبرًا.

حكى أمجد كل التفاصيل دون أن يأخذ لحظة لتنفسه. حكى وكأنه يُشيع زواجًا سريًا ليكون في العلن، وعندما أفرغ ما يحمله في قلبه، هدأ، فربت سامح على كتفه بحنوٍ فسكن. وكان منير يستمع في صمت ووجه منخفض ينظر إلى الرمال ولا تعلوه أية تعابير. لكن عندما بدأ سامح حديثه، رفع رأسه واستمع:

أحببناك يا أمجد لأنك تستحق الحب، ووثقنا بك لأنك أهلٌ لها. وكان عشمنا أن تبقى معنا.. لكنه الحب.

ابتسم في مودة وهو يخبطه في كتفه مداعبًا قبل أن يُكمل:

لولا الحب ما عشنا، فبعضنا هنا لأنه يُحب فقيدًا فقده، وبعضنا هنا لأنه يُحب أن يحيا من يُحبهم دون احتلال يبطش بهم وقتما شاء، وبعضنا هنا لأنه يُحب الحرية كما لا يُحب شيئًا قط. إنه الحب يا صديقي ما يجمعنا وإن ظهر لنا أنه قد يُفرقنا.

سكت قليلًا، وعلى وجه أمجد علامات بين الحرج والفرح، وعلت وجه منير علامة استفهام كبيرة. قبل أن يُكمل سامح:

هتوحشنا بس يا أمجد. إحنا بنعتبرك من أهلنا، منّا، وهتفضل كده دايمًا.

والله يا سامح على عيني فراقكم.

فرك سامح رقبة أمجد وكتفه في ود، قبل أن يوجه نظره إلى منير الصامت ويخاطبه بكلمات مرحة:

متغاظ عشان الولد حب وأنت قاعد كده وسط الخناشير ولا كلمة حنينة ولا لمسة دافئة ولا بوسة مخطوفة؟ يا راجل بكرة تقابل واحدة تخليك كل يومين تقول عايز أسافر. بطلوا الحقد ده بقى.

ابتسم أمجد وهو ينظر لصديقه نظرات حب، لكن كلمات سامح لم تلاقِ نفس الصدى عند منير الذي تجمعت الدماء في وجهه حتى أصبح كحبة رمان. فقام في غضب وابتعد عنهم دون أن ينطق.

فتغير لون وجه أمجد، فوضع سامح يده على ركبته:

ماتزعلش من منير. منير طيب وبيحبك وزعلان على فراقك جدًا وعلى إنه بعد ما اتجمع معاك في مكان واحد تقضوا فيه مع بعض كل وقتكم هتسيبه وتمشي. هو بيعتبرك عيلته، والغضب اللي فيه ده حب، حب نقي ما شفتش زيه بين اتنين أصحاب. ماتزعلش منه.

أنا مش زعلان منه، أنا بس عايزه يفهمني ويقدرني، وأنا عمري ما هتخلى عنه، وهيفضل أعز أصدقائي ومن أقرب الناس ليَّ طول عمري.

لكزه سامح بمرح:

أعز مني؟

رد أمجد بابتسامة ونظرة امتنان وتقدير:

إنت كمان من أعز الناس وأقربهم لقلبي، وأنا بعتبر نفسي أخوك زي ما اتفقنا. بعتبر نفسي أخوك بكل ما تعنيه الكلمة، ويا رب تفضل معتبرني أخوك وتيجي تزورني في الإسكندرية.

ربت سامح على يده:

ربنا يوفقك في حياتك يا أمجد. إنت تستاهل كل خير. وطبعًا هاجي أزورك. هو في أخ ما بيزورش أخوه غير لو كان ندل؟

ملأت الابتسامة وجه أمجد ليلكزه مرة ثانية سامح في ود وهو يقوم من مكانه:

يلا قوم هتعلمني الكسل، وهتدرب معانا النهارده عادي، وسافر بكرة.

قاما وبدأ أمجد يومه الأخير مع المناضلين وفي قلبه شوقٌ لا يعادله شوقٌ لليلى، محبوبته التي ترك الدنيا ليلتحق بها، وشكة تلاحق قلبه من حينٍ لآخر كلما أحس كم سيحن إلى تلك الأيام التي عاشها في الصحراء مع أنقى بشر عرفهم وأكثرهم إخلاصًا، وعصره قلبه كلما رأى منير.

وفي المساء، اختلى سامح بمنير ساعة، وعادا لأمجد بوجه مستبشرٍ لسامح وتردد يعلو وجه منير. وعندما تلاقى منير وأمجد مرة ثانية، لم تتحدث الألسنة بل تحدث دمعهما وهو ينزل من منابعهما بدون توقف وهما متعانقين، وسامح مبتسم ويُغالب دموعه لدمعهم.

وسهر الجميع قليلا تلك الليلة بعد وليمة أقيمت على شرف أمجد، وحفل سمرٍ صغير أقاموه وداعًا له، غنَّى فيه الأصدقاء أغانيهم الوطنية، ومأمون صديقهم ألقى عليهم النكت بطريقة تمثيلية جعلتهم يقعون على الأرض من كثرة الضحك.

وبعد ليلتهم السعيدة، ألقى سامح كلمة قصيرة توديعًا لأمجد، وذهبوا منتعشين إلى النوم، وتركوا أمجد مع منير يتحدثان حتى غلبت الأعين النعاس فناما قريري العين.

وفي الصباح، ودعهم أمجد.. ورحل.

"٦"

الأسكندرية واليهود

استقل أمجد القطار عائدًا إلى الأسكندرية والشوق يحمله، والقطار يمشي برتابته وأصواته المعتادة التي لم يقطعها إلا مرور إحداهن بجواره كطيف سريع، كأنها هي، بفستانها الأزرق المُحبب إلى قلبها وقلبه، وشعرها المتطاير، ورائحتها التي لن يُخطئها. فاجأه وجودها، فتسمر في مكانه للحظات قبل أن يقوم مندفعًا وراءها، سار يلتفت ويبحث في الوجوه حتى رأها تمشي في آخر القطار وظهرها له. ناداها فلم تلتفت، فأسرع الخطى نحوها قليلًا، فوجدها تفتح الباب وتمسك بيديها فيه وتترك نفسها للهواء القوي ليدفع إليها كإندفاع أسراب الجراد على محصول زرع أخضر. جزع أمجد وهرع إليها، ونداءه يتردد من ورائها يخاف أن يُحاول الإمساك بها فتفلت يدها وتقع، لكنها لم تُجب. فبهدوء مد يده إليها، ثم أمسك بها فجأة بحركة سريعة، فنظرت إليه وعندما رأته ابتسمت وملأت وجهها الفرحة، واحتضنته بشدة في لحظة ارتج فيها القطار فاختلت حركتها لتقع من باب القطار، قبل أن تجد يدها قضيب الباب فتمسك به، ويحاول أمجد الإمساك بها فتختل قدمه فيمسك قضيب الباب الآخر، ويدها بيده الأخرى، وجسديهما في الهواء تتلاعب بهما الريح وهما يحاولان في فزع الرجوع إلى القطار،

وكادا أن ينجحا لولا ظهوره المفاجئ. قطار قادم من الجهة الأخرى وهما في طريقه. الموت يأتي فجأة!

"اصحى يا فندي، يا فندي قوم، يا فندي!"

انتبه أمجد من حلمه ليجد نفسه غارقًا في عرقه، ورجل صعيدي شديد السمرة، حسبه للوهلة الأولى ملك الموت قبل أن ينتبه أنه مازال في القطار وأنه كان يحلم حلمًا ثقيلًا، وهذا الرجل حاول إيقاظه قبل أن يأخذه الموت في حلمه إلى متاهاته!

عدل من ثيابه ونظر إلى الرجل نظرة تائهة، فابتسم له بشفقة وقال بلغة محببة للقلب:

"مالك يا وِلد، كنت عم تترعش وانت نعسان. اقرأ آية الكرسي، دا كابوس شيطان، ما تحرقه إلا آية الكرسي."

ثم بدون استئذان وضع يده على جبين أمجد ورأسه وبدأ في قراءة آية الكرسي ثم المعوذتين، وأمجد مستسلم له يحاول أن يجمع شتات نفسه حتى هدأت سريرته، فشكر الرجل الصعيدي الطيب، ثم سرح في الطريق وهو يفكر في حلمه الذي يطارده. ليست أول مرة يحلم فيها حلمًا مشابهًا. أتكون رسالة من الله؟

طرد هذه الفكرة عنه وهو يردد كلمات الرجل الطيب: "دا كابوس شيطان، أكيد كابوس شيطان..."

وحاول إبعاد الموضوع عن باله تمامًا بترديد أغنية لعبدالمطلب يدندنها بصوت خفيض، وبعد دقائق يسمع ترديدًا لها بجانبه، ليجد الرجل الصعيدي يرددها معه مبتسمًا، فيعلو صوتيهما بها بعض الشيء ليغنيا بسعادة بصوت مرتفع، وبعدما أتموها

يضحكون في سعادة من القلب. ويعرف أمجد صديقه الصعيدي، صديق القطار.

عم دسوقي، من قنا، أتى الأسكندرية منذ عشرات السنين وأتى معه بقصب الصعيد ليفتح محلًا للعصير ثم محلات أخرى مشاركة مع الخواجة توني، يهودي خبير في السوق ويعرف كيف يُخلص الأرنب من فم الأسد، وله معارفه في كل مكان. وبعد فترة أصبحا يوردان القصب لكل محلات العصائر في الأسكندرية وتغيرت الأحوال وأصبح القرش يأتي لا يعرف من أين من كثرة مصادر دخله، لكنه لم يحب إلا أن يعيش وسط الناس كما فعل دومًا. يركب القطار ويأكل من عربات الفول، ويشرب الحشيشة في غرز حوش النجار وحوش الجعان مع توني عندما تكون الغزالة رايقة، ويصلي الوقت بوقته، ولا يستخدم سيارته الخاصة إلا فيما ندر، ولا يقودها بنفسه أبدًا.

عرّف الرجل نفسه لأمجد، بينما أمجد كان قد عرفه عندما بدأ الحديث عن نفسه، فمن في الأسكندرية لا يعرف محلات عصير دسوقي، لكنه لم يكن يعرف أية معلومات عن الرجل الذي انبهر ببساطته وطيبته رغم كونه من أغنى أغنياء الأسكندرية.

وعرّف أمجد نفسه لعم دسوقي فعرف والده، وأثنى وترحم عليه.

أحبه أمجد من قلبه، وأحبه عم دسوقي، وتواعدا أن يتلاقيا قريبًا في قصر عم دسوقي أو على مقهى باستروديس في محطة الرمل.

كان غريبًا أن يكون الرجل بهذه البساطة ثم يسكن قصرًا ويواعده على مقهى يوناني.

وعندما انتهت الرحلة، نزلا من القطار وأصر عم دسوقي أن يُوصله بسيارته المنتظرة له أمام المحطة، لكن أمجد أصر على الرفض بحجة أنه سيشتري بعض الأشياء من الجوار قبل أن يذهب إلى البيت، فاحتواه عم دسوقي بين ذراعيه في عناق قوي، ورحل وهو يوصيه بالاتصال به في أي وقت.

مر أمجد على محل للورود، واشترى وردات حمراء وصفراء وأخرى على شكل فراشات بلون أزرق زاهي، واتجه إلى محل صلاح السعاتي ليراها هناك، كما تركها، كوكبه الدري. رأته فابتسمت وجهها ومحياها وكأنها جمعت كل رايحين الأرض ونثرتها في وجه أمجد، واستأذنت والدها أنها ستسبقه إلى البيت وخرجت متعجلة لتجده ينتظرها بعيدًا بعض الشيء، فذهبت إليه واستقلا التروماي وهما متلاصقان ويدها تحتضن يدها وهي مستسلمة له دون أن يتحادثا، حتى وصل إلى بيته فجلب سيارته وتحركا بها إلى مكانهما المفضل على شاطئ الأسكندرية. وعندما وصلا حملها بين ذراعيه وقبلها لتكون قبلته أول كلمة تخرج من شفاهه لشفاهها، وبعدما غابا ونسيا الدنيا من حولهما، قالت بصوت خافت متهدج:

وحشتني أوي، بحبك.

تتجوزيني؟

فاجأها أمجد، فنظرت إليه طويلًا نظرة بين فرح ودهشة وصدمة وخوف. ثم قامت وسارت في اتجاه البحر فلحق بها، وأمسكها من كتفيها وأدارها إليه لينظر في عينيها مباشرة بقوة، نظرة صقر يستعد للطيران:

تتجوزيني؟ ارتمت بين ذراعيه ودموعها تغالبها:

نفسي أوي بس إزاي؟

زي ما كل الناس بتعمل، هروح أطلب إيدك من أبوكِ، وإحنا مش هنكون أول مسلم يتجوز يهودية، وإنتِ قلتي إن أبوكِ تقدري تقنعيه.

أبويا ممكن يوافق تحت ضغطي، وعلشان بيحبني وما يحبش يزعلني، بس أمي هي المشكلة، وممكن تأثر عليه.

أنا هقنعها.

تقنعها إزاي؟ إنت ما تعرفش أمي، غير إنها مش عايزة تجوزني لحد غير ابن اختها. قالتها بمقت شديد قبل أن تُكمل:

وما تفتكرش إنها عايزة تجوزني ليه حُبًا فيه، دا لمصلحة. أبوه من أغنى أغنياء الإسكندرية، وبينهم شغل، وهما الاتنين متمسكين بالجوازة دي جدًا، وابنه السمج عارف إني لا أطيقه. أخرجها أمجد من بين ذراعيه بحركة قوية مفاجئة، لينظر إلى عينيها مباشرة بقوة:

إنتِ بتحبيني؟

أنا بعشقك، بحبك من أول مرة شفتك فيها، من أول مرة عينيا وقعت فيها عليك وإنت بتبصلي. إنت أحلامي اللي ما حلمتهاش، وآمالي اللي عمري ما صدقت إني ممكن أقابلها. أعادها لحضنه وهو يمرر يده على شعرها:

يبقى هنتجوز، الحب أقوى من أمك ومن الدنيا... كان يقول ذلك وعبارة عم محمود تلاحق أذنه كدقات الهون في وقت الظهيرة: "لا تحارب الدنيا فتهزمك". وعندما بدأ ستار الليل يضع لفائف أخرى

داكنة، قام أمجد بتوصيل ليلى قريبًا من بيتها، وباله مشغول كيف يُقنع أمها بأمر زواجهما.. لكل مشكلة حل.. غدًا يجد لتلك المشكلة حلًا.

"٧"

منذ شقَّت ليلى دنيا أمجد وسكنت قلبه، أصبح لا يجد أنسًا إلا معها. فأصبحت فلكه الذي يدور فيه ليل نهار دون كللٍ أو تعب. وكما كان الوصول لليلى صعبًا، فالإحتفاظ بها كان أصعب.. كان أمجد يعرف ذلك جيدًا، وكان يُريد أن يُذلل كل العقبات التي قد تحول دون تحول حبهما إلى الأبدية. لذا قرر أن يعمل، فمهما كان غنيًا ومعه من الأموال التي تكفيه، يجب أن يكون له عمل ليكون جديرًا بها أمام أهلها، وكي يتحمل مسؤولية الأسرة التي يُريد أن يبنيها.. لذا قرر أن يذهب إلى عم محمود لعل البداية تكون من عنده.. مساءً، وبعدما ذهبت ليلى، اتجه أمجد إلى المقهى الذي يجلس عليه عم محمود كل ليلة، لكنه لم يجده، فانتظره قليلًا، ثم سأل صاحب المقهى عنه فأخبره بأنه لم يأتِ منذ يومين، وقد سأل عليه فعرف أنه مريض. فقام من فوره أمجد وذهب إلى بيت عم محمود، فوجد شراع الباب مفتوحًا، فطرق الباب، فأتى صوت عم محمود من الداخل يسأل من الطارق، فأجابه، فأخبره أن مفتاح الباب تحت المشاية، يفتح ويدخل.. دخل أمجد فوجده على السرير ووجهه أصفر من التعب. أمجد يعرف أن عم محمود لا يرقد مثل هذه الرقدة إلا عندما يكون مريضًا بحق.

مالك يا عم محمود؟ ألف لا بأس عليك. رد عم محمود واللهاث يلاحق صوته:

الحمد لله يا أمجد، يا ابن الغالي. واحشني وأبوك واحشني. شكلي خلاص هروح له.

ما تقولش كده بس يا عم محمود، إنت مالك؟ مريض بإيه؟

شوية وجع في البطن، ونفسي باخده بالعافية، وطول الليل بكح، بس الحمد لله أحسن من غيري، مش هناخد زمانا وزمن غيرنا.

جبت دكتور يعني يا عم محمود؟

لا يا بني ولا دكتور ولا غيره، الموضوع ما يستاهلش. خالتك نفيسة جارتي بتيجي تعملي شربة كل يوم فيها الشفا إن شاء الله، ولو مفهاش الشفا يبقى ربنا رايد أمره ينفذ، ووقتها ولا دكتور بينفع ولا شربة بتسري.

شربة إيه يا عم محمود بس؟ أنا هنزل أجيب دكتور.

خد يا أمجد، خد يا بني، ما تجيبش حد. لم يعره أمجد انتباهًا ونزل أحضر طبيبًا، وبعد نصف ساعة كان الطبيب يكشف على عم محمود... وبعدما طمأنه وأخبره أنه مثل الحصان، خرج مع أمجد ولامه في تأخر استدعاء الطبيب وأنه عنده تعب في الصدر والرئتين كان سيتحول إلى التهاب رئوي، بالإضافة إلى برد في المعدة، وكتب له بعض الأدوية.. ذهب سريعًا أحضر الدواء ورجع إلى عم محمود النائم مستكينًا في سريره، لا يقطع سكونه إلا بعض السعال المتقطع..

رحت فين يا بني؟ وقالك إيه الدكتور يا أمجد؟ غمزه أمجد بعينه:

قال لي إني أدورلك على عروسة عشان حرام صحتك دي تروح هدر. تجهم وجه عم محمود وقال باستنكار:

ما أنا متجوّز! ارتبك أمجد وتلعثم في كلماته:

أه طبعًا طبعًا يا عم محمود، دا أنا بهزر معاك. سرح عم محمود ببصره قليلًا قبل أن يقول بصوت خفيض:

أروح لها ولا اتجوز عليها؟ تعجب أمجد كثيرًا من ذلك الإخلاص، وتذكر ليلى واعتصر فابتسم قبل أن يقول لعم محمود بحب:

طيب قوم يا راجل يا طيب، خد الدوا دا هيكون فيه الشفا إن شاء الله.

ما بحبش الأدوية، بلاش أدوية.

لا لا إنت هتعمل زي العيال ولا إيه؟ يلا خدهم أحسن ما أنادي لخالتي نفيسة وأخليها تدهملك بالعافية!

لا خلاص هاخدهم، إلا نفيسة. ضحك أمجد وضحك عم محمود وتناول حبات الدواء، وبعدما سامره أمجد قليلًا تركه على وعد أن يأتيه باكرًا.. وقبل أن يمشي استوقفه عم محمود:

أمجد استنى، هو انت كنت جاي عايز حاجة؟ رد بابتسامة:

كنت عايز أشوفك وأسلم عليك، ممنوع؟ ابتسم عم محمود ابتسامة عريضة وخرج أمجد مزفوفًا بدعواته... ليقضي ليلته مع ليلى على الهاتف وعقله مشغول بالبدء في العمل... وبدأ يمر على عم محمود يوميًا صباحًا ومساءً يُعطيه الدواء ويسامره، حتى

امتثل للشفاء وبدأ يُلح في أن يخرج للمسجد والمقهى مخالفة لأمر الطبيب، وأمجد يمنعه بكل ما يملكه من وسائل الإقناع، حتى يأست محاولاته فصحبه إلى المقهى ليقضي بعض الوقت وسط الناس كما يحب، وعندما وصلا للمقهى حاوطت الناس عم محمود تُسلم عليه وتدعو له بالشفاء بحب ومودة، وأصر صاحب المقهى أن مشاربهما اليوم عليه. جلسا يتسامران، وقد رُدت الحياة إلى وجه عم محمود، فقرر أمجد أن يُفاتحه في أمر العمل:

عم محمود، عايز أشغل شغل أبويا تاني. تحولت ملامح عم محمود للجدية:

بس إنت فاهم إيه في السوق عشان تشغل شغل أبوك؟ أبوك كان عمودًا من عواميد السوق، عارف كل كبيرة وصغيرة فيه، بيشتغل في الاستيراد في أكتر حاجة السوق عطشان ليها ومش لاقيها، ويصدر الوافر في وقت ما يكون الناس عايزين يخلصوا منه ولو بربع تمنه، وفي النص يستورد قماش ويبيعه بالشيء الفلاني في محلات مفيش ابن أصول في إسكندرية ما اشتراش منها، ولما قماشه اتشهر ومحلاته سمعت في إسكندرية كلها، فتح مصنع ملابس وبقى يصنع أحسن حاجة ممكن حد يلبسها، أبوك كان بيفهم في كل حاجة، والسوق يلف ويقرص الجميع ويبجي عنده ويطاطي، عشان كده من بعده مكنش ينفع أي حاجة من الشغل ده تكمل، محدش كان عارف يجيب إزاي القماش ده ومنين، وإزاي يصنع، وإزاي يستورد ويصدر وإمتى، فحمينا فلوسك من إنها تضيع وصفينا المصانع والمحلات وحفظنا لك الفلوس، بأمر أبوك

قبل ما يموت... حرك عم محمود الكرسي من تحته ليواجه أمجد أكثر ويقول له في حدة:

وبعدين إنت عملت إيه في السوق ولا شفت إيه عشان تقول أشغل شغل أبويا تاني، تعرف إيه عشان تقول إنك تملا مكانه؟ رد أمجد بهدوء وإحباط وترجي:

ما هو أنا جايلك يا عم محمود عشان تقف جنبي، عشان تبقى معايا نشغل الشغل وأتعلم منك. لوح عم محمود بيده:

ولا أنا حتى أنفع، أنا آه عارف حاجات من الشغل، بس ولا أعرف أعمل نص اللي أبوك كان بيعمله.

يا عم محمود ما هو ممكن نبدأ وربنا هيسهل... قاطعه عم محمود بنفاذ صبر:

أمجد، فكنا من السيرة دي وخلّي الواحد يتهنى على كباية الشاي، الموضوع ده لا هينفع ولا هتقنعني به، فريح نفسك. أصاب الإحباط أمجد، وصُدم من رد فعل الرجل الوحيد الذي لم يتوقع أن يخذله، وكظم غيظه تحت أسنانه، حتى فرغ عم محمود من شايه واستند عليه ليعود إلى البيت، وعندما اطمأن أنه في سريره وأخذ دواءه، استأذنه بأن يرحل، فاستوقفه عم محمود:

أمجد، ما تزعلش مني يا بني، واسمعها مني، اعرف السوق واشتغل قبل ما تحاول تبقى أبوك، أبوك ما بدأش شغله غير لما اتمرمط في السوق، ابدأ من تحت عشان ما تضيعش فلوس أبوك اللي سبهالك. رد عليه أمجد بفتور:

إن شاء الله يا عم محمود، تصبح على خير. ورحل أمجد وهو ناقم على عم محمود، بينما عم محمود يعرف أن هذه آخر مرة سيأتي إليه أمجد، لكنه سيعود يومًا ما عندما يفهم. لو كان في العمر بقية.

قضى أمجد الأيام التالية مشغول البال، لم يُعد عم محمود مرة ثانية بحجة أنه امتثل للشفاء ولا يحتاج إليه، ولا يعرف بدونه من أين يبدأ، كان مُحنقًا منه بشدة فلم يكن يتخيل أن يخذله، كان يتوقع الخذلان من الجميع إلا عم محمود. انشغل حتى انشغلت معه ليلى، ولم تتركه إلا وقد باح لها بما يشغل باله وفكره، وعما حدث بينه وبين عم محمود...

من حكايتك عن عم محمود الرجل أكيد عايز مصلحتك وبيحبك، يمكن خايف ما تقدرش تشيل الشغل كله وإنك لازم تتعلم الأول في السوق لحد ما تبقى قادر.

لأ، هو كان ممكن يعلمني كل حاجة، وهو بيقولي إن ما يقدرش يشغل الشغل زي أبويا الله يرحمه، لكن ده مش صحيح، أبويا كان معتمد عليه في كل حاجة وبيشاركه أدق التفاصيل.

ما هو لو مش قلبه عليك يبقى عايز يريح نفسه ومش عايز دوشة دماغ بشغل تاني بعد ما كبر ومرض.

ما كنتش أتوقع إنه يرفض لي طلب، مش عم محمود!

طيب خلاص، خلينا ننسى عم محمود، ناوي تعمل إيه؟

مش عارف أبدأ منين، محتاج واحد يبقى معايا أثق فيه ويكون عارف خبايا السوق.

طيب منير صاحبك مش ممكن يساعدك؟ مش أنتم كنتم شغالين في تجارة مع بعض.

تجارة منير ما تنفعش في إسكندرية.

ليه، إيه نوع تجارته؟

يا ليلى ده موضوع طويل، مش وقته، خلينا نتكلم في موضوعنا أحسن. تغيرت ملامح ليلى وأشاحت بوجهها قبل أن تعود لتنظر لأمجد وتقبله من خده:

أمجد، اعمل اللي تشوفه صح، أنا عارف إنك هتلاقي طريقك، وفي كل الأحوال إنت حبيبي وأملي في الدنيا، وده مش هيتغيّر مهما حصل. ضمها بقوة، ثم عاد لشروده وتفكيره، واستسلمت هي له وتركته يُفكر دون أن تقاطع تفكيره، وكأنها تحولت لقطعة من ملابسه تلتصق به دون حركة. كان يتذكر كل من صادقه يومًا، يبحث فيهم عمن يكون ذا خبرة في السوق ولو قليلة، ويثق به، لكنه لا يجد بين عشرات الوجوه التي مرت أمام عينيه وعرفهم في حياته من يحمل تلك الصفات. حتى أضاءت صورة أحدهم أمام عينيه، صورة مضيئة رغم دكانة لون صاحبها، عم دسوقي، وبفرحة الغريق الذي وجد لوحًا من الخشب وسط صخب الأمواج، حكى لليلى عن عم دسوقي الذي قابله في القطار، دون أن يُخبرها بحلمه الذي كان سبب المعرفة، وأقنع نفسه أن ربنا أرسل عم دسوقي له ليكون عونًا له في يومٍ مثل هذا اليوم، لكل سبب مسبب، ولكل حادثة سبب. تحمست ليلى لحماسه، واستبشرت خيرًا من استبشاره، وعندما حان وقت الرحيل، قام بتوصيلها وذهب إلى

بيته، وتوجه مباشرة لهاتفه، وأخرج رقم عم دسوقي واتصل. رد عليه صوت نسائي ساحر، ساحر لدرجة أن أمجد تلعثم وقال مرة ثانية بصوت أكثر حدة: "ألو"، فتحدث المتلعثم وسأل عن عم دسوقي، وأخبرها باسمه، فغابت بعض الوقت ليأخذ فرصة ليتبين أن هذا الصوت لم يسمعه إلا من ليلى، ولو أن ليلى لم تكن معه منذ دقائق لشك أنها هي، أيوجد في الكون صوت يحمل سحر صوت ليلى؟ كانت الفكرة صادمة له، فلا شبيه لليلى عنده، ولا يُريد أن يكون لها شبيهًا. بعد قليل عاد ذلك الصوت الساحر ليخبره أن دسوقي بيه سيكون معه حالًا. تفاجأ أمجد: "بيه؟ عم دسوقي معه البكوية؟" لكن أتاه صوت عم دسوقي سريعًا عبر أسلاك الهاتف فوجد لسانه يخاطبه بعم دسوقي وسط ترحيب حار منه، وسأله إن كان يستطيع أن يمر عليه الآن، فدعاه للغداء معه في اليوم التالي، وتأكد أنه يحمل العنوان الصحيح وأخبره أنه في انتظاره الساعة الرابعة عصرًا، وأغلق، وعلامات الاستفهام تحوم حول رأس أمجد، يبدو أنه لا يعرف الكثير عن عم دسوقي بعد، لكنه إن كان يحمل البكوية فسيكون مفيدًا له أكثر.

في الموعد كانت سيارة أمجد تقف أمام باب قصر عم دسوقي، وعندما عرّف نفسه للبواب، أدخله في الحال، فدسوقي بيه كان قد ترك خبرًا بمجيئه. كان المكان فخمًا بالفعل، فخمًا بطريقة مُبهرة، فالحديقة شاسعة تحتاج إلى علامات إرشادية حتى لا تضل طريقك بها، وعندما وصل لمبنى القصر كان هناك أحدهم يفتح الباب وينتظره، باب من زجاج بأحرف مُذهبة، آية في الجمال والبهجة، وعندما دخل، غاصت قدميه في سجاد لم يألفه من قبل

رغم يُسر حال والده وثرائه، والأثاث والجدران وزينتهم تخطف العيون وتثير في النفس رهبة. وعندما استقر به الحال في أحد الصالونات، قطع عليه تأمله لجمال المكان وجهٌ جميل لإمرأة شابة ترتدي زي الخدم، فوقف احترامًا لحسنها، فطلبت منه بابتسامة ساحرة أن يستريح، وأن البيه سيكون معه خلال دقائق. كان جمالها قد أوحى له أنها صاحبة ذلك الصوت الساحر التي ردت على إتصاله بالأمس، لكنه لم يكن الصوت الذي سمعه رغم زقزقة صوتها كعصافير الجنة. لم ينتظر طويلا قبل أن يأتي عم دسوقي بسماره المُحبب وهو يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا به بعض الخطوط الداكنة لتُطفى عليه طيبة وبهاءً فوق طيبته وبهائه. عانقه بشدة، عناق الأب لإبنه وسط عبارات ترحيب حارة، قبل أن تأتي الخادمة الحسناء مرة أخرى ليطلب منها عم دسوقي إعداد مائدة الغداء على الفور، ليحاول أمجد التنصل من الغداء بحجة الإفطار متأخرًا دون جدوى، وكان غداءً يليق بفخامة القصر في شكله الشهي، ويليق بأصل عم دسوقي الصعيدي في مذاقه الطيب، وسط حديث ودود بين عم دسوقي وأمجد، وعم دسوقي يخدمه على مائدة الطعام بنفسه، حتى انتهيا، وجلسا يشربان الشاي، ودخان سجائر عم دسوقي الملفوفة من تبغ فاخر يملأ المكان برائحة مميزة. وبعدها حكى أمجد لعم دسوقي عن أفكاره الخاصة بإعادة تشغيل أعمال والده لكنه لا يعرف من أين يبدأ وأنه يسأله المشورة. تناقشا في بعض التفاصيل، ومر عليهما الوقت سريعًا لتسقط الشمس من أعاليها ليحل الظلام، ويعد عم دسوقي أمجد بالخير، ليرحل أمجد ليلحق حبيبته المنتظرة في محل والدها

قبل أن ترحل إلى البيت. خرجت عندما رأت سيارته، وحكى لها الحديث الذي دار بينه وبين عم دسوقي. كان مستبشرًا، وقد دخل عم دسوقي قلبه بدون استئذان وربَّع، وقد أحبه عم دسوقي أيضًا بشدة واعتبره ابنه الذي لم يأتِ إلى الدنيا، فعم دسوقي من أشهر عذاب الإسكندرية. وانتظر أمجد رد عم دسوقي ليمر أسبوع وأسبوع دون رد، وبدأ الفتور يدب في قلبه وقد شعر بالحرج من معاودة الإتصال به. لكنه لم ينتظر يومين إلا ووجد تليفونه يدق مساءً، ليأتي ذلك الصوت الصعيدي من الجانب الآخر ليتقافز قلبه من السعادة والحماس.. والأمل.

ياراجل يا طيب، بقالي يومين بتصل بك، مفيش حد بيرد.

أنا آسف والله يا عم دسوقي، أصل أنا بره البيت معظم الوقت، أنا افتكرت إنك نسيتني.

أنساك إزاي يا أمجد، إنت بقيت ابني، في أب ينسى ابنه! شعر أمجد بكثير من الامتنان لعم دسوقي، ليرد وقد ظهر ذلك على صوته:

دا شرف ليا يا عم دسوقي، إنت فعلًا عندي في مكانة والدي الله يرحمه.

ألف رحمة ونور عليه، طيب إنت فاضي بكرة تتغدى معايا؟

آه فاضي طبعًا، بس ما بلاش الغداء يا عم دسوقي.

شوفوا الواد، يقولي والدي وابني وبعدين يغيّر كلامه في ساعتها ويعمل غريب! بكرة هستناك على الغدا يا أمجد، تعالى بطنك فاضية عشان هناكل أكلة سمك ما حصلتش.

حاضر يا عم دسوقي، وبالنسبة لموضوعنا. رد عم دسوقي بضحكة ودودة:

تعالى بس بكرة ومتبقاش مستعجل كده، بكرة نتكلم. أغلقا الخط وأمجد لأول مرة بعد وفاة والده يشعر بأن له ظهرًا في هذه الدنيا، بأن له سندًا، ووسط مشاعره الجارفة تلك طار قلبه إلى ذكر ليلى، وكأن كل مشاعره بتنوعها تصب عندها بالنهاية، ليلى، تلك التي عشق الدنيا من طلة عينيها التي سحرته من أول يومٍ طلت فيه على عالمه التعيس بعد رحيل كل أحبابه، لتجعل الحياة تدب في عالمه من جديد ويجري الدم في أوصاله كما كان يجري من قبل. ليلى تلك الفاتنة المخلوقة من زخات مطر روَت حياته بكل ما هو جميل، وسقته من بعد ظمأ. كان يتحدث إلى نفسه ويُناجيها منتظرًا تليفونها الليلي ومشتاقًا له وكأنه لم يسمع صوتها منذ زمن، وكأنه لم يكن معها منذ سويعات قليلة. أصبحت عالمه، وذاكرته، وذكرياته، أصبحت قصيدته التي لا يستطيع أن يحيا بدون ترديدها. كان وكأن الحب قد مسه بجنونه كما مس العشَّاق من قبله، وهو يتذكر شكلها الشقي وهي تتراقص برأسها في مرح وشعرها يتطاير من حولها وتضرب لسانها في سقف حلقها لتُخرج صوت طقطقة شقية وتتحداه أن يفعل مثلها، فيُحاول فيُخرج صوتًا مُضحكًا، فيضحكان وكأن كل هموم الدنيا قد زِيحت من فوق أكتافهما. وعندما حان الموعد وأتاه صوتها تلاقى شوقهما طوال الليل لينام بعدما حكى لها بعض الحكايات الطفولية المضحكة، ونامت وهو يُتابع أنفاسها. ليل العشاق ولهٌ، ونهارهم نشاط، لكن العشق خطر.

"٨"

في الموعد كان أمجد في بيت عم دسوقي الذي استقبله كعادته بكل حب وفرح، وبعد الغداء المُعتَبر أتى ذكر العمل الذي كان فضول أمجد لمعرفة الجديد فيه كبير.

عارف إنك مستني أحكي في موضوع المحلات. قال عم دسوقي ذلك وهو يُشعل سيجارة أخرى بعدما لفها بمهارة عالية، ليرد أدهم بعشم مبتسمًا:

كلك نظر والله يا عم دسوقي.

بص يا سيدي، أنا اتفقت مع رجل أعرفه وأثق فيه إنه يبدأ شغل معاك ويكون ذراعك اليمين. هو اشتغل عمره كله في القماش والملابس وأي حاجة اتخلقت من غزل ونسيج، ويعرف خبايا السوق كويس، وراجل مجدع ويفهم الأصول. توجو شحاتة. نظر إليه أمجد بتساؤل، ليستطرد عم دسوقي:

اسمه توجو شحاتة، يهودي، آه يهودي. إحنا مالنا بملة أهله، المهم إنه كويس ويفهم في الشغل ومع إن اليهود ياكلوا مال النبي لكن دا غير اللي في القفص كله، مش معطوب وأمين.

لأ، ما عنديش مشكلة مع دينه.

الله ينوَّر عليك، هيجيب معاه شوية شباب يشتغلوا تحت إيدكم، تقعد كده معاهم تختار اللي تستهويه وتركز له، والباقي ما يلزموناش في حاجة. ومال عليه مُكمِّلا حديثه وهو يُشير إلى قلبه:

أهم حاجة دا، قلبك يكون مطمئن ومرتاح، هو بيفهم أحسن مننا، إسأله لو مش عارف تاخد قرار.

أنا قلبي مرتاح عشان وقفتك جنبي يا عم دسوقي.

يا حبيب قلبي، طيب بما كده يبقى دخلني معاك شريك بـ ٢٥٪، هحطهم فلوس وانت الإدارة والذي منه مش هتدخل فيها بتاعتك وانت حر، مجرد نبقى خلاص فلوسنا دخلناها في بعضها وبقت مصلحة واحدة. مع إنها والله يا أمجد مصلحة واحدة من غير حاجة. ظهر بعض التردد على وجه أمجد وخرجت كلماته متلعثمة:

آه، طبعًا يا عم دسوقي، طبعًا تشاركني. نظر إليه عم دسوقي نظرة خبير قبل أن يقول مبتسمًا وهو يُشعل سيجارة أخرى قد أتم لفها أثناء حديثهما:

لأ، لو متردد بلاش، الموضوع مش مستاهل. رد أمجد هذه المرة بحماس، وهو يُفكر أن وجوده كشريك سيكون مُفيدًا بماله وخبرته وكويته الغامضة:

لأ يا عم دسوقي، أنا بس اتفاجئت، بس طبعًا أنا اتمنى تشاركني، دا أنا أبقى محظوظ كمان.

ابتسم عم دسوقي في رضا:

طيب يبقى على بركة الله، والبضاعة توجو هيقعد معاك ويرسيك وتتفقوا على كل حاجة، وهنبدأ بمقدرة، ونجلب كل اللي يخلّي السوق يجيلنا، ولو احتجت خد مني سلف، أنا مش هدخل غير بـ ٢٥٪، وأي حاجة تانية تبقى سلف من غير فوائد تدهوملي بعد ما يشاء ربنا.

لا، أنا معايا يكفي، ربنا ما يحرمني منك يا عم دسوقي، طيب هقابل توجو إمتى؟

هيجيلنا بعد شوية، على ما نصلي العصر يكون جه، تاخده تفرجه على المحلات وتقعدوا مع بعض كده ترسموا كل حاجة في دماغكم. هروح أصلي وأرجعلك، وهبعتلك حد قله تشرب إيه لحد ما أخلص.

لأ، ما أنا هصلي أنا كمان.

طيب خلاص تعالى نصلي جماعة مادام كده.

ونادى عم دسوقي على خادمته الحسناء التي وجهت أمجد لطريق الحمام ليتوضأ، ثم إلى مصلى صغير يتبع الفيلا يقصده عم دسوقي في الصلاة وفي أوقات الذكر وحفلاته التي يقيمها أحيانًا لبعض الصالحين ليتذكروا الله وأفضاله، وبخشوع أمَّ عم دسوقي أمجد في صلاة بها ما بها من السكينة، ثم عادا ليلف عم دسوقي سيجارته مرة أخرى، وقبل إتمامها وصل توجو.

توجو شحاتة... رجل في أوائل الأربعينات، زحف الصلع على منتصف مقدمة شعره ليطيره دونًا عن باقي شعر رأسه بطريقة عجيبة، قصير وله كرش صغير يتراقص أثناء مشيه لكنه لم يمنعه من ذلك النشاط الذي يتحرك معه أينما ذهب، في عينيه بريق ذكاء أو خبث، لكن جلسته لا تُمل فهو ابن نكتة من الطراز الأول، وأول من يُطلق نكتة عليهم هم أهل ملته، اليهود، تتريث قليلًا عندما تقابله، لكن بعد دقائق قليلة يدخل قلبك وتألفه، في وقت العمل لا يعرف إلا الجد، وفي غيره لا يعرف إلا الهزل.

عرفهما عم شحاتة على بعضهما البعض، ورأى أمجد كم التبجيل الذي يقدمه توجو لعم شحاتة، توجو لا ينادي عم شحاتة بالعم، بل يناديه بشحاتة بيه، وعم شحاتة ليس هو عم شحاتة الذي يعرفه الآن، فهو شحاتة بيه بكل ما تعنيه الكلمة، لكن وسط هيبته يُعطي مجالًا ولو صغيرًا لقفشات ونكات توجو، مُظهرًا فيضًا من تواضعه.

كان أمجد يُحدث نفسه: كم هو عظيم عم شحاتة، فالخير يجري على يديه دون انتظار شكر من أحد، كما فعل معه في القطار بلمسته الأبويّة الحانية، والآن يُصر ببساطة وحب وهو من هو في الجاه والغنى على أن يُضيف توجو قبل أن يرحلا معًا لمحلات والده، وتوجو بالنسبة له لا شيء!

وبعدما شرب ضيافته، قاما ورحلا بسيارة أمجد متوجهين إلى المحلات، وسط توصيات عم دسوقي الحازمة: "لو اشتكى منك أمجد يا توجو اسكندرية مش هتعرفك تاني."

لكن توجو رد عليه مبتسمًا: "إلا اسكندرية!"

وفي أثناء الطريق كان أمجد قد ألف توجو تمامًا وأطلق عليه اسم توتو، وعند المحلات انبهر توجو بشكلها الخارجي، وانبهر أكثر عندما دخلها، كانت شاسعة ودورين، لكل دور باب منفصل، وباب الدور الثاني يفضي إلى سلم واسع ومريح، وعندما أتم توجو تفحصه للمكان وقد تغير وجهه الضاحك لعلامات الجد الشديد، قال فكرة عبقرية لاستثمار المكان بشكل أمثل.

الدور الأول يُقسَّم، جزء للملابس الجاهزة وجزء للأقمشة بأفخر أنواعها، والمكان متسع ليحتوي القسمين بطريقة ممتازة، ويُضم الدور الأول على الثاني بسلم داخلي بدلًا من الخارجي يُفضي إلى مكان واسع مفروش بطريقة فخمة لانتظار الزبائن بجانب بروفة متسعة ومريحة، وفي الجزء الآخر من الدور الثاني غرفة واسعة لعاملات التفصيل، فمن يعجبه موديل جاهز يشتريه أو يُعدل له المقاس قليلًا في المصنع الصغير بالأعلى إذا لزم الأمر، بينما هو يجلس في الأعلى يحتسي قهوته، وإن أعجبه موديل لا يوجد مقاسه اختار القماش لنفصله له على مقاسه، أو يختار من موديلات أخرى على الورق ما يعجبه لنصنعه له.

ثم قال بحماس وثقة:

ماينفعش يدخلنا زبون ويخرج من غير ما يشتري، لازم يلاقي اللي عايزه أو نعملهوله.

أعجبت الفكرة أمجد بشدة، أعجبته وقد عرف لماذا أوكل عم دسوقي الأمر لذلك التوتو العبقري، وظهر هذا الإعجاب على ملامحه والتقطه توجو بعين خبير، فأكمل:

اتفقنا؟ ننتقل نشوف هنجيب قماشنا والملابس منين؟

ابتسم أمجد وهو يرى الرضا على وجه توجو:

اتفقنا يا توتو.

عدد توجو أماكن شراء الأقمشة ولزوم التطريز في مصر وفي الخارج بطريقة خبير يعرف كل شيء في هذا المجال، واتفقتا أن عم دسوقي سيسهل لهم عملية الاستيراد اللازمة، وخلال شهر من العمل الجاد

من أمجد أعاد تصميم المكان وتجديده، حتى إذا ما انتهى العمال والمهندسون منه صار فخمًا كأنه أحد محلات باريس الشهيرة.

مر الشهر وهو يترك توجو مع العمال يوميًا ويذهب ليلتقي بمحبوته التي لولاها ما فعل ما يفعله الآن.

كان يُفكر في ذلك جالسًا على البحر وهي متوسدة فخذه وشعرها يتطاير من حوله وحولها فيجمعه لها، بعدما أفطرا إفطارًا شعبيًا وقبل أن يذهب هو للعمال وتذهب هي لمحل والدها، كانت تملك كل انتباهه، لكن صورة منير وسامح ورفاق الصحراء أبت إلا أن تتداخل مع حبه، يا ترى كيف حالهم؟ وهل هم من قاموا بالعملية التي تداولها الناس من أسبوع عندما قُتل ثلاثة من الجنود الإنجليز على خط قناة السويس في عملية لم يُقبض فيها على أحد ممن قاموا بها؟ هل يكون أصدقاؤه هم من قاموا بها؟ هل يشعر سامح الآن أنه اقتص لأخيه ولو قليلًا؟ هل لو كنت مازلت معهم كنت سأكون من منفذي هذه العملية؟ هل بعتهم من أجل نفسي؟

سرح بأفكاره حتى انتبه إلى ليلى تنظر إليه من وضعها المقلوب وهي نائمة على رجله وهو لا يشعر بها.

أنت مش هنا خالص، سرحان في إيه يا أستاذ وأنا معاك؟

ابتسم أمجد بحب وتجاهل سؤالها قائلًا:

إنتِ عارفة إن شكلك وإنتِ باصّة ليّ بالمقلوب كده أجمل من أي حاجة في الدنيا كلها.

قرصته قرصة صغيرة في ذراعه التي يحتضن بها شعرها ورأسها قائلة في مرح:

لأ، أنا عارفة إنك بتضحك عليّ بكلمتين عشان ما تقوليش سرحان في إيه، فرحان؟ أديك نجحت وضحكت عليّ فعلًا.

ضحك طويلًا وهو يضم رأسها أكثر ثم قال والحب يتقافز من عينيه:

نفسي أصدق إنك موجودة، مع كل الفترة اللي قضيناها مع بعض دي ومش قادر لسه أقتنع إنك معايا، إنك ليّ.

ثم نظر إليها في جدية شديدة قبل أن يكمل:

إنتِ اللي شفتها في محل الساعات بتاع صلاح الساعاتي؟

ردت عليه وسط ضحكتها وتورد وجنتها من الفرح والحب:

أيوه يا سيدي، أنا اللي شفتها في محل الساعات بتاع صلاح الساعاتي.

متأكدة؟

آه متأكدة.

طيب، مادام متأكدة يبقى إنتِ.

قامت فاحتضنها بشدة، همست في أذنه: بحبك.

فضمها أكثر حتى اشتكت بدلع من قوة ضمته، فهون منها، وقد نسى أو تناسى بعض الشيء رفاق الصحراء.

كانا يقضيان كل يوم هكذا، إما أن يتقابلا صباحًا أو ظهرًا، أو الاثنين معًا، ومساءً قبل أن تذهب إلى البيت يأخذها لترى الجديد في المحلات بعد رحيل العمال وتوجو، وتُشير إليه ببعض آرائها التي في الغالب تكون في محلها، وكأن جمالها مطبوعٌ في عينيها فتستطيع أن ترسم كل شيءٍ بجمالٍ كما لا يستطيع أحد غيرها.

وفي مساء أحد الأيام اصطحبها أمجد ليستشيرها في رسمة جدارية قبل أن يُنهي النقاش في العمل بها، لكنه وجد توجو مازال في المحلات بعد رحيل العمال يقوم ببعض الحسابات. تردد، ثم قرر أن ينزلا ويتفحصا المكان كأي صديقين، لكنها كانت تعرف أنه مادام يهوديًا سيعرفها ولم تبالِ، كان جموحها مع أمجد يسيطر على تصرفاتها حتى أنها قد ملّت من تسترها على الأمر أمام والدها الذي يعرف أن هناك أمرًا ما، لكنه لا يُحب أن يضغط عليها لتخبره، ويثق أيضًا بابنته أنها ستتخذ القرارات الصحيحة في الحياة كفتاة ذكية راشدة.

لكن الأمر لم يكن متعلّقًا بالذكاء والرشد عندها، كان متعلّقًا بالحب والعشق والوله.

فترجلت من السيارة مع أمجد، ودخلا. رفع توجو عينيه ليريهما، قبل أن تتسمر عينيه على ليلى لثوانٍ.

إزّيك يا توتو، بتعمل إيه لحد دلوقتي؟

أهو بخلص شوية حسابات أجرة عمال المحارة عشان شغلهم خلص وهيأخذوا أجرتهم بكرة، يعني بكرة عايزين فلوس.

ماشي، نسيت أعرفك، ليلى صديقتي جاية أخد رأيها في الشغل والمحلات.

رفع رأسه في خطفة سريعة مع ابتسامة خاطفة قائلًا:

أهلًا.

ردت بإيماءة من رأسها دون أن تنطق، ليتحدث أمجد:

طيب هسيبك تكمل حساباتك وأنا هفرجها على المكان.

تركاه وتجولا في المكان وكأنه غير موجود، وإن كان شابه حديثها بعض التحفظ لوجود غريب، ولم يعيرا انتباهًا لعين توجو التي تتبعهما أحيانًا. توجو الذي أتم حساباته سريعًا وأعطى أمجد ورقة بها الحساب وتركهما ورحل، لتمسك ليلى يد أمجد وكأنها تستقوى به على بعض الخوف بداخلها.

توتو دا عرفني.

متأكدة؟

كان باين عليه أوي.

ما تقلقيش توتو بتاعي، وما يقدرش يعملك مشكلة.

أمسكت يده بشدة أكثر:

ما بخافش وأنا معاك، ما بخافش مادام عارفة إنك موجود في إسكندرية.

ثم نظرت إليه والكلمات تخرج من أعمق أعماقها:

إوعى تسيبني في يوم يا أمجد.

احتضنها بقوة:

ليه بتقولي كده؟ مستحيل أسيبك، أنا ماليش غيرك في الدنيا، إنتِ كل دنيتي.

فبكت، بكت بشدة وانتحبت، وأمجد يُحاول أن يهدئ من روعها ويمسح دموعها، وهو لا يعرف لماذا كل هذا البكاء. ثم نظر إليها وبكاؤها لا ينقطع، وكأنه يفحصها قبل أن يقول بطريقة جادة:

عيونك فيها عيب خلقي.

نظرت بدهشة، فأكمل مبتسمًا:

الناس كلها دموعها بتنزل من أطراف العينين جوه، وإنتِ دموعك بتنزل من أطراف عينيكي من بره!

ضحكت وسط دموعها ولكزته قائلة:

ما تضحكنيش وأنا بعيط، يا غلس.

احتضنها وهي مبتسمة ودموعها لم تجف:

اطمئني يا ليلى، سنحارب الدنيا - إن شاءت - وسننتصر.

أنا بحبك أوي يا أمجد.

وأنا كمان بحبك أوي، وأكتر منك كمان.

فقالت بدلع:

أكتر بأد إيه؟

فأشار بما بين إصبعين:

أد كده.

فنظرت إليه منفعلة وهي تدفعه في صدره:

دول بس؟

فجري منها قائلًا:

إيه كتير؟

فجرت وراءه قائلة:

بتحبني أكتر مني بدول بس، بتضحك عليّ الفترة اللي فاتت دي كلها.

فيقف أمجد وينظر لها نظرة مكر، فتقف متوجسة منه:

إيه مالك؟

طيب أنا بحبك أكتر منك بأد كده وإنتِ زعلانة يبقى إنتِ بتحبيني أد إيه؟

فتراجعت خطوتين للوراء وهي تقول:

إيه دا، أنا كشفت نفسي؟

فيتقدم نحوها أمجد فتجري منه قائلة:

هحاول أحبك أكتر، صدقني هعصر على نفسي ليمونة وأحبك أكتر.

ثم تقف فجأة ليصطدم بها محتضنًا لها، ليهدأ تسارع أنفاسهما وتتسارع دقات قلبيهما، حتى إذا سكنا قالت ليلى بحنين جارف:

أنا بحبك أكتر منك بكتير.

أبدًا، أنا أكتر منك.

فلكزته في صدره قائلة:

لأ أنا أكتر.

فضمها بعنف:

قلت لك أنا أكتر.

فدفعته عنها قائلة:

اعترف إن أنا أكتر.

فجري منها وهو يُخرج لسانه لها ويقول:

لا اعترفي إنتِ، أنا بحبك أكتر.

فجرت وراءه وأمضيا الوقت في هذا الجو من الحب والمرح، قبل أن يكتشفا أن الوقت قد سرقهما وتأخرت ليلى على البيت، فأسرعا ليغلقا الباب الأخير المفتوح للمحل دون أن يلحظا تلك العينين التي وقفت بعيدًا في نقطة مظلمة لتراقبهما ثم تختفي في بناية عندما خرجا من المحل ليرحلا.

واستمرت عادتهما لم تنقطع، ومر أمر توجو بسلام، وأتت الأقمشة والملابس بأسعار ممتازة تحت إشراف توجو ومساعدة

عم دسوقي، وتنوَّرت المحلات بزينتها كأنها في يوم عرسها، وكان يوم الافتتاح عظيمًا، قد تكون الإسكندرية كلها قد سمعت أو رأت هذا الافتتاح المبهِر، وأتت ليلى فزارت ورأت، والفرحة في قلبها لا تُضاهيها فرحة، كانت سعيدة بأن حبيبها قد أخذ تلك الخطوة الهامة في حياته، وقد نوت من قلبها أنها ستدعمه ليكون أنجح رجلًا في الإسكندرية كلها.

وفي غمرة فرح أمجد بالافتتاح وبمحبوبته، أتاه عم دسوقي مهنئًا، وجلسا يحتسيان القهوة في مكتبه دون أن يلحظ عم محمود الذي مرَّ على المحلات لينظر نظرة حزينة عليها، ويبتعد.

كان عم محمود، برغم مرحه، رجلًا حزينًا، فاليوم كان بهجة للجميع إلا هو.

جلس أمجد مع عم دسوقي وتوجو وسط المحلات يشرف على البائعين والعاملين بكل همة ونشاط، كان أمجد يشعر بالنشوة والثقة، قبل أن يفاجئه عم دسوقي:

إيه أخبار ليلى بنت صلاح الساعاتي صحيح؟

ارتبك أمجد وكاد أن يسقط فنجان القهوة من يده، فصاح به عم دسوقي مهدئًا:

على مهلك يا أمجد، براحة يا بني، اتخضيت ليه؟

فرد في ارتباك:

لا، ما تخضتش ولا حاجة، أنا اتفاجئت بالسؤال بس.

فابتسم عم دسوقي ابتسامته الطيبة محاولًا طمأنة أمجد المرتبك:

إنت تعرف ليلى منين؟

كانت صورة توجو متمثلة أمام عين أمجد، يريد أن يطرحه ضربًا، هذا الخائن الذي وشى به عند عم دسوقي، وحدث نفسه أنه سيطرده بسبب هذه الفعلة، إن لم يكن الآن فبعد أن يستقر به الحال سيطرده.

ها، تعرفها منين؟

رد بارتباك:

دي صديقة، صديقة أعرفها من زمان يا عم دسوقي.

اقترب عم دسوقي من أمجد وهو يغمز له قائلًا:

على عمك دسوقي؟ ما تعودتش إنك تخبي عليَّ حاجة يا أمجد.

ثم تراجع مُشعلًا سيجارة من نوع أجنبي على غير عادة تدخينه لسجائره الملفوفة:

أنا في صفك يا أمجد، إنت ابني، مهما كان الموضوع هساعدك.

انهارت مقاومة أمجد وقرر أن يحكي له كل شيء، وقد كان، حكى كل تفاصيل حبه لتلك الفتاة التي أتت له من السماء دون إذن، تلك الفتاة التي قرر أن يحارب الدنيا من أجلها ويهزمها، تلك الفتاة التي جعلته يسعى لإرجاع تجارة والده والعمل بها.

بحبها يا عم دسوقي مش زي أي حد حب قبل كده، الحب اللي بحبه لها حب جديد، اختراع جديد، مهما حكيت لك مش هتقدر تفهمني يا عم دسوقي قد إيه بحبها.

ليه يا وله مش هقدر أفهمك، إنت بتحسب عمك دسوقي ما حبش وداب وسهر وعد النجوم وحلم؟ دا أنا حبيت لحد ما شعري شاب من كتر الحب، بس طلعت من الحكايات دي بدرس واحد.. حب كل الناس، حب كل الستات، بس ما تحبش امرأة بذات نفسها أبدًا.

إزاي بقى يا عم دسوقي، هو الحب يبقى اسمه حب غير لما يكون لست واحدة بس تملك القلب والعقل والعين والروح؟

دا أنت واقع لشوشتك يا واد يا أمجد.

واقع لشوشة شوشتي، ومش عارف أعمل إيه.

تعمل إيه؟ تتجوزها.

ما أنت عارف المشكلة إنها يهودية، هي بتقولي إن باباها نقدر نقنعه ومش هيقف في طريقها في النهاية، بس مامتها صعبة أوي.

ضحك عم دسوقي طويلًا قبل أن يشعل سيجارة أخرى من السيجارة المحترقة، وأمجد ينظر إليه مستعجبًا ضحكه، قبل أن يقول:

اعتبر نفسك اتجوزتها يا أمجد.

طيب عرفني إزاي؟ دا في مشكلة تانية إنها في حكم المخطوبة لابن خالتها.

إنسى الكلام دا كله، هجوزهالك.

كانت أمارات الحيرة كلها تظهر على وجه أمجد، وبعض أمارات فرح كغريق وجد مركبًا صغيرة قادمة في عرض البحر الشاسع، قبل أن يجلّي عم دسوقي الأمر وينقذه من حيرته:

ابن خالتها دا يبقى ابن توني شريكي، وأنا عارف إنها مش طايقة الواد وأمها مش هتأخر ليَّ طلب، ولا توني.

ينصر دينك يا عم دسوقي، أنت معجزة جاءت لي من السماء، أنا مش عارف أشكرك إزاي.

تشكر إيه يا أمجد، أنا بجوِّز ابني، ومادام بتحبها وبتحبك لازم تكون نصيبك.

تذكر أمجد أمر توجو، فتغير لون وجهه بعض الشيء قائلًا:

بس اعذرني يا عم دسوقي اللي عمله توجو دا ما يصحش، أنا عارف إنه هو اللي قالك، ما يصحش إنه يشوف حاجة ويطلع يقولها، حتى لو لأعز الناس، الأصول أصول.

لا يا أمجد، ما تزعلش من توجو، توجو قالي لأنه عارف إن أنا ممكن أحل الموضوع ولو متصعب عليك أسهله، كان عايز مصلحتك.

ثم نادى عم دسوقي على أحد العاملين وأخبره أن ينادي توجو، فجاء توجو وقد عرف من وجه أمجد الأمر، قبل أن يتحدث عم دسوقي بطريقة البيه:

اعتذر لأمجد يا توجو، بس فهمه إنك حكيت لي على بنت صلاح الساعاتي ليه؟

رد توجو والرجاء يملأ صوته:

يا أمجد كان قصدي خير، شفت الحب في عيونكم وإنكم بتخبوه، فملت على عم دسوقي قلت له عشان عارف إنه هو اللي ممكن يساعد إنكم تعلنوه.

كنت تقولي يا توجو، قولي إن عم دسوقي ممكن يحل الموضوع، مش تروح من ورايا تحكي اللي شفته مهما كانت نيتك.

خفت تقول بتدخل في حاجة متخصنيش وتكسفني، خصوصًا إنك ما حكيتش ليَّ حاجة وخبيت عليَّ، حقك عليَّ ما تزعلش، أنا بس من حبي لك عملت كده.

فتدخل عم دسوقي قائلًا:

خلاص يا أمجد، ما يبقاش قلبك أسود، دا أنا لو منك أشكره.

خلاص يا عم دسوقي، حصل خير يا توجو.

فالتفت عم دسوقي لتوجو قائلًا:

يلا يا توجو حصل خير، روح أنت تابع شغلك.

فرد بعشم:

لا أبدًا، ما أروحش غير لما يقول لي يا توتو.

ابتسم أمجد، ونهره عم دسوقي ضاحكًا.

إنجر من هنا، توتو في عينك.

جرى توجو في مرح وكأنه يتفادى قذيفة ما، وبعد قليل رحل عم دسوقي تاركًا أمجد في ترقبٍ فرح، وهو يعد الدقائق ليسمع صوت ليلى ويحكي لها الخبر.. وقد كان.

أتى صوت ليلى ليلًا عبر أسلاك الهاتف فرحًا بهذا الافتتاح العظيم، بالرغم من الدقائق القليلة التي تحدثا فيها في ذلك اليوم على غير عادتهما، فلم يكن من المناسب أن يترك المحلات في يوم الافتتاح والمهنئون يأتون له،

لكن صوته هو لم يكن فرحًا بمناسبة الافتتاح بقدر سعادته بالوعد الذي ساقه له عم دسوقي، وحكى لليلى الخبر، لكن رد فعلها لم يكن المنتظر، فلم يأتِ لأذنه منها إلا الصمت.

إيه يا ليلى؟ كأنك مش فرحانة!

لأ، فرحانة، بس اتلخبطت لما عرفت إن عم دسوقي هو شريك توني.

ليه؟ إيه اللي يلخبط في كده؟

خلاص يا أمجد مفيش.

لأ في، قولي متلخبطة ليه؟

سكتت قليلا قبل أن تقول:

أصل دايمًا كان بابا يذكر إن توني شيطان مشارك شيطان، مكنتش أعرف مين شريكه، بس من حكايتك عن عم دسوقي حبيته، ودلوقتي متلخبطة ليه بابا كان بيقول عليه كده.

فاجأته ليلى، وعلت صوت الحذر في رأسه، قبل أن يطرده وهو يقول:

والله يا ليلى أنا ماشفتش منه غير كل الخير، يمكن عم صلاح ما اتعاملش معاه أوي فما وصلش ليه غير تصرفات توني اللي مفيش بينهم عمار.

ردت ليلى بصوتها المتردد:

يمكن.

وقضيا الليلة محاولين الابتعاد عن الأمر وإظهار الفرح، لكن في قرارة نفسيهما كان هذا الأمر مسيطرًا على الليلة تمام السيطرة.

وبعد ثلاثة أيام أتى عم دسوقي المحل فذاب كل الحذر في رأس أمجد مع رؤية ابتسامته الطيبة الودودة:

يلا يا عريس، خدتلك ميعاد بكرة تروح تتفق مع أهل العروسة، هنروح سوا بكرة بعد العشا.

بجد يا عم دسوقي! بسرعة كده؟

إنت ماكنتش مستعجل ولا إيه؟ لو مش مستعجل نأجل!

لا، لا، مستعجل أوي، دا أنا مستني اليوم دا من زمان.

قضيا بعض الوقت في ضحك ومرح، وقفشات توجو كلما مر عليهما لا تنقطع، ثم رحل عم دسوقي بعدما شرب قهوته وعشرة سجائر تقريبًا، تاركًا أمجد يُريد أن يقفز ليلمس السقف من فرحته، ولم يستطع الانتظار فخرج وترك توجو في المحلات وذهب إلى ليلى، وعندما رأته تحججت بأي شيء وخرجت له ليأخذها بسيارته ويحكي لها أنها من غدٍ ستصبح أمام كل الناس خطيبته، قبل أن يُكمل كلماته وجدها تميل على وجنته وتقابله قبلة طويلة وهو يقود سيارته والنشوة تغمره من قرب حبيبته ومن الفرح.. قبل أن تنطق هي بعد قبلتها الطويلة:

عارفة يا حبيبي، بابا قال لي.

بجد؟ قال لك إيه؟

حكى إن شريك توني عايز يجوزني لشاب اسمه أمجد، وإن توني خلاص مش عايز يجوزني لابنه الرخم، وأمي وافقت، وهو مش عارف يعمل إيه عشان يبطلوا يقرروا ليَّ كأني طفلة، ومستغرب إن إزاي كلهم يوافقوا بالسهولة دي، فقلت له إن أنا كمان موافقة، فاستغرب أكتر، فحكيت له إني شفتك مرة أو اتنين من بعيد وأعجبت بك، فهم هو إن الموضوع أكتر من كده، كان باين على وشه، انزوى قليلا، وبعدين رجع مبتسمًا، حضني وباسني وقال لي مبروك، هو خايف عليَّ، بس لما يعرفك كويس هيبطل يخاف.

ففاجأها هو بقبلة، فلكزته في كتفه، فقال في مرح:

دي مقابل بوستك، ومن بكرة هبوسك في أي مكان دون تردد.

مسكت يده بحب، وقضيا ليلة قد تكون الأجمل على كورنيش الإسكندرية قبل أن تعود للبيت لتستقبلها أمها استقبال الأميرات وكأنها امرأة أخرى غير التي عرفتها منذ طفولتها.

كان الأمر عجيبًا، لكن ليلى لم تتوقف عنده كثيرًا، فأخيرًا سيكون أمجد لها وستكون له.

وفي اليوم التالي مساءً كانت أقدام أمجد الفرحة تصعد السُلم وراء عم دسوقي، وقلبه يدق بشدة وكأنه يُريد أن يخرج ليقبل الجدران التي ألفت حبيبته، والهواء الذي تشبَّع بأنفاسها، وكل التفاصيل التي قد تكون قد لمستها يومًا بأصابعها الجميلة.

وفتحت أمها الباب ورحبت بعم دسوقي في ألفة، ورحبت به هو بشدة، وأتت العروس لتنخفض الأنوار ويُضيء نورها، وتتصاعد الموسيقى في رأس أمجد وكأنه في فيلم سينمائي.

كانت في قمة حُسنها كما لم يرها أمجد من قبل، في فستان وردي قانٍ، قصير وبحمالتين رفيعتين، ويُغطي كتفيها وساقيها بشيفون شفاف من نفس اللون، ليُهدأ من جمالها بعض الشيء لتستطيع القلوب المُحبة تحمله، كزهرة لوز بعينين مرسومتين وخدود متوردة من الفرحة والخجل، وشفاه رُسمت كحبة فراولة طازجة.

تأهب أمجد أن يقوم ويحتضنها فأمسكه عم دسوقي من يده قائلًا له بصوت خافض:

لأ، اجمد.

فتريث أمجد، وضحكت أمها وقد لفت انتباهها ما فعله، بينما ازدادت ليلى خجلًا على خجلها.

وقضوا سهرة مرت كالنسيم العليل، كل شيء كان بسيطًا وسهلًا ولا تعقيد أو رفض، وقد ارتاح عم صلاح بعض الشيء لأمجد، وقد تخيّل أن وجهه مألوف بالنسبة له، فحكى له أمجد أنه كان يأتي ليشتري الساعات خصيصًا ليرى ليلى دون حاجة له بكل ما يشتري، لكنه لم يسترد في تفاصيل الأمر، وقد تأكد أن هذا الشاب يُحب ابنته وسيضعها في عينيه، ولا يهم دينه ففي النهاية الزواج رجلٌ وامرأة.

بعد سهرتهم في البيت، أصرَّ عم دسوقي أن يصطحبهم للعشاء في الخارج بهذه المناسبة السعيدة. فتحجَّج عم صلاح بالمحل وأنه لا يستطيع السهر، فخرج عم دسوقي وأمجد وليلى وأمها، وعزمهم في أفخم محلات الإسكندرية. وبعد العشاء، تلطَّف عم دسوقي بطلبه من أمها أن يتركا الحبيبين ليقضيا ليلتهما كما يشاء الحب

بهما، وأنه سيقوم بتوصيلها للبيت. فوافقت، وشعرت ليلى لأول مرة بأن أمها القاسية تحبها.

اصطحب عم دسوقي أم ليلى ورحلا، وتركاهما ليقضيا الليل أخيرًا معًا، وليس عبر أسلاك الهاتف. ودون تفكير، اتجها إلى مكانهما المفضل على شاطئ الإسكندرية، فقضيا الليل في حب ومرح وضحك حتى انتصف الليل عليهما، فذهب كلٌ منهما إلى بيته والقلوب وجدت سكناها أخيرًا.

وعلى عكس إرادة الجميع في إقامة حفل عرس لهما تتحاكى بفخامته الإسكندرية أعوامًا طويلة، تزوجا بعد ثلاثة أشهر في حفل صغير بسيط مبهج، لم ينقصه إلا حضور أصدقاء أمجد، أصدقاء الصحراء وصديقه منير. فقد ذهب إليهم كما ذهب من قبل، لكنه عندما وصل لم يجدهم ووجد نساء البدو والأطفال فقط. فانتظر الرجال حتى أتوا مساءً ليعرف منهم الخبر، فلم يُخبره كبيرهم بشيء إلا أنهم قد رحلوا ولا يعلم إن كانوا سيعودون، وإن فعلوا فمتى!

فتركهم وهو مهموم وحزين، فكيف يفرح بدون أقرب الأصدقاء إلى قلبه؟ لكن لحقه أحد أبناء الشيخ الكبير، وأخبره بأنهم قد رحلوا في اتجاه سيناء، وسينضم إليهم البعض ويدخلوا إلى فلسطين لمحاربة العصابات التي تريد أن تستولي عليها. وأوصاه أن ذلك سر سيقتله الشيخ إن عرف بأنه أفشاه لأحد، لكنه أخبره به لأنه يثق أنه لا يريدهم إلا في خير، وقد رقَّ قلبه لحزنه.

فشكره أمجد من قلبه، وطمأنه أنه لن يُخبر أحد، ورحل والوساوس تعتمل في رأسه، والإحباط يملأه. لكن عندما مسك يد عروسته،

نسى كل شيء إلا دفء حبهما، وهما يمشيان بجوار بعضهما البعض وكأنهما نزلا هكذا من السماء بكل توافق الدنيا وتنقاضها، ليكوِّنا لوحة فنية رائعة لم يرسمها رسام قط، ولم يصل لمخيلته جمالٌ كجمالهما. ليقضيا ليلة كليالي الأساطير بين حب وجموح وعشق ووصال وسكينة.

كانت كل ليلة جديدة قضياها مع بعضهما البعض أجمل من سابقتها. ليل المحبين متفرد ومختلف ومحيِّر.

وبعد ثلاثة أيام قضوها في بحار من الحب بجوار بحر الإسكندرية، سافرا إلى اليونان ليقضيا أسبوعين من العسل المصفى والمصطفى لهما دونًا عن البشر، أسبوعًا هو آخر أسابيع عام ١٩٤٧، وأسبوعًا آخر هو بداية العام الجديد، وبينهما رأس السنة الميلادي لعام ١٩٤٨. ولم ينغص على أمجد سعادته إلا بعض الحديث الذي سمعه مصادفة عن حرب العصابات التي تحدث في فلسطين بين اليهود المهاجرين والفلسطينيين قبل انتهاء الانتداب البريطاني المرتقب، وبعد قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولتين: أحدهما لليهود على مساحة ٥٦٪ من الأرض، وأحدهما للفلسطينيين على مساحة ٤٣٪ من الأرض، وتبقى منطقة القدس بما تمثلها من ١٪ من الأرض تحت الانتداب الدولي بإدارة الأمم المتحدة. وقد رحب الصهاينة بهذا القرار، بينما شعر العرب بالظلم والإجحاف فيه، وقد تصاعد العنف بين عصابات الهاجاناه الصهيونية والمسلحين العرب.

كان أمجد يتتبع تلك الأخبار وهو في أشد القلق على منير وأصدقائه، لا يعرف مصيرهم وسط هذه النار المشتعلة، وفي قلبه بعض الحنق من ظلم تمارسه دول الاحتلال على البشر، فيتحكمون في الأرض، يعطوها لمن شاؤوا وينزعوها عمن شاؤوا، وكأنهم ورثوها عن آبائهم.

وبعد مرور الأسبوعين، انتزع أمجد وليلى روحهما انتزاعًا من إجازتهما الممتعة، ورجعا للإسكندرية ليقضي أمجد يومه بين ليلى وبين العمل الذي تصحبه إليه ليلى معظم الوقت، إلا أوقاتًا قليلة تذهب لتجالس والدها كما كانت عادتها سابقًا. أما أمها، فكأنها أصبحت شخصية جديدة لم تعرفها ليلى من قبل. عجيب أمر تلك التغيرات غير المنطقية بلا سبب واضح، لكن ليلى كانت سعيدة بذلك التغير، فأخيرًا تشعر بأن لهما أمًا.

ومضت الحياة كالحلم الجميل، حلم كمعجزات الأنبياء. فمن كان يتخيل أن يلتقي الحبيبان بالرغم من كل الاختلافات والعقد. كانت حياتهما كاملة، بين حب ليس له مثيل، وسعة في الرزق، ورضا من الأهل، وأوقات سعيدة، لكن دائمًا ما بشرت الحياة بكمالها أن ثمة نقصان قريب في الطريق.

كان أمجد يفكر في ذلك وهو في طريقه إلى عمله صباحًا بعدما قام بتوصيل ليلى إلى محل والدها لتقضي معه بعض الوقت، لكنه استعاذ من الشيطان الرجيم ودعا أن يحفظ كمالهما من أي نقصان.

كان العمل مزدهرًا بأكثر مما كان يتخيل، وتوجو يقوم بكل شيء بنشاط وهمَّة وإخلاص ليس لهم مثيل. وأمجد الآن يعرف كيف ينهي صفقات الاستيراد التي ستصبح شهرية. وإن تعثرت أي صفقة، كان تدخل عم دسوقي حاسمًا لتسهيل إتمامها. عم دسوقي رجل قوي، وأقوى مما كان يتخيل أمجد، وأمره نافذ.

وحين انتهى الشهر الأول من يناير ١٩٤٨، كان أمجد يستعد لعقد صفقة أخرى لاستيراد ملابس وأقمشة، قبل أن يأتي له استدعاء من عم دسوقي ليذهب مباشرة له. وكان عنده خبر جديد خاص بالعمل.

مورد آخر سيورد لمحلات أمجد كل ما يحتاجه بأسعار أرخص مما اعتادوا عليه بخصم يقارب ال ٢٥٪. وهذا سيضاعف مكسبهم. لكن المختلف في الأمر أن هذا المورد لا يريد أن يتعامل مع أحد غير عم دسوقي، لأن هذا الخصم الكبير له خصيصًا وليس لأحد غيره.

كان العرض جيدًا ولا يستطيع أمجد رفضه، لكنه كان يخشى أن تكون جودة الأقمشة والصناعة أقل من مثيلاتها، فطمأنه عم دسوقي بأنها ستكون أعلى جودة، وسيعاينها هو وتوجو لاحقًا وسيرون بأعينهم. فوافق أمجد وأرسل لتوجو فأتى ليكتبوا كل الأنواع التي يريدونها هذا الشهر بالكميات المطلوبة. وحينما انتهوا، رحلوا ونفس أمجد يشوبها بعض القلق من جودة الأقمشة بالرغم من كل كلمات عم دسوقي المطمئنة.

وعندما أتت البضاعة، فتحها متلهفًا هو وتوجو، فوجدوها بأجود ما يكون، فاطمئن قلبه ولام نفسه على قلقه المسبق، فأي شيءٍ يأتي من عم دسوقي يأتي معه الخير. وانشغل باقي الشهر بين ليلى والعمل، الذي أصبح لا يفعل شيئًا فيه إلا أنه يرى أن البائعين والعاملين يعملون جميعًا بجد، فتوجو متكفل بكل شيء، وعم دسوقي متكفل بشراء البضاعة اللازمة، كان العمل مريحًا لأمجد، فيقضي معظم الوقت مع ليلى في مكتبه أو يخرجان، وليلى لم يكن يعجبها تركه الأمر لتوجو وعم دسوقي بهذا الشكل، لكنها لم تشأ أن تزعجه بذلك، خاصة أنه بالتأكيد سيتوقع أن لهذا الأمر علاقة برأي أبيها عن عم دسوقي في السابق. لم يكن يشغل بال أمجد في هذا الوضع السعيد إلا أصدقائه الذين ذهبوا ليحاربوا الصهاينة في أرض فلسطين، كان يتتبع الأخبار ويلتمس أوقات السحر ليدعو لهم، وكان أحيانًا يراهم عظامًا تركوا الدنيا من أجل هدف، بينما هو قد انغمس في الدنيا انغماسًا، لكن الحب قدر لم يستطع إلا الاستجابة له، وليلى أحلى قدرٍ سيق إليه، وكل يومٍ يزيد حبه لها لحسن عشرتها التي لا تختلف عن حسن محياها. لكنه، وقبل نهاية شهر فبراير، تذكر أنه لم يسأل عن عم دسوقي كل هذه الفترة الطويلة، انشغل عنه بدنياه الصغيرة، فشعر بقلة الأصل، فقرر الاتصال به فورًا وهو في المكتب ليأخذ منه موعدًا ويذهب إليه، بالرغم من أن عم دسوقي أخبره أن يأتي بدون اتصال أو استئذان، لكنه لا يحب ذلك. أدخل الرقم وانتظر قليلًا وهو يسمع ذلك الصوت المميز لرنين الهاتف، قبل أن يأتيه صوت نسائي (ألوو)، كان نفس الصوت الساحر الذي سمعه أول مرة اتصل بها في عم

دسوقي، ذلك الصوت الذي قال إنه يشبه صوت ليلى حبيبته بشدة وكأنه هو، قرر (ألوو)، فرد عليها (ألو)، فسألت (مين بيتكلم؟)، فعرفها، أم ليلى، هذا صوت أم ليلى، لن يُخطئ الآن صوتها بعدما عاشرهم وألفهم، فأغلق الهاتف بارتباك، وهو لا يعرف ماذا تفعل أم ليلى في قصر عم دسوقي وكيف لها أن ترد على هاتفه بدون تكلف هكذا؟ قرر، واستقل سيارته وذهب إلى قصر عم دسوقي زائرًا بدون موعد مسبق كما طلب منه عم دسوقي من قبل، فُتحت له الأبواب ودخل إلى الصالون ينتظر وهو لا يستطيع أن يجلس من الترقب والتساؤل، وأتى له عم دسوقي منزعجًا ومتلهفًا إن كان حدث شيء، فليس من عادة أمجد أن يأتي هكذا. وكان، برغم القلق البادي عليه، وجهه الصعيدي الأسمر متورّدًا، ورائحة الشهوة تخرج من مسام جلده، كان واضحًا أن عم دسوقي انتزع نفسه الآن من جوف امرأة! منزعجًا، سأله:

في حاجة يا أمجد؟ حصل حاجة؟ رد أمجد في هدوء:

لا يا عم دسوقي، وحشتني فقلت أزورك من غير ميعاد كالقضاء المستعجل. هدأ عم دسوقي:

خضتني يا راجل، أصلك عمرك ما عملتها. ثم مال عليه مربّتًا على كتفه قائلًا بود:

إنت غالي عندي يا أمجد.

أنا عارف يا عم دسوقي والله، وأنت أغلى الغاليين، بس يبدو إني جيت في وقت غير مناسب، فكويس إني اطمأنت عليك وأجيلك يوم تاني نتفق عليه.

لأ أبدًا، استنى لازم نشرب القهوة مع بعض. ولم ينتظر رده، ونادى ليعدوا القهوة، وفي بال أمجد أنها المرة الأولى التي لا يُصر أن يتناول معه طعام الغداء. انتظر القهوة، واحتساها سويًا ثم رحل، وفي ركنٍ بعيد ركن سيارته وانتظر فيها مترقبًا، ساعة ونصف منتظرًا قبل أن يُفتح باب قصر عم دسوقي وتخرج سيارة يقودها سائق عم دسوقي الخاص وأم ليلى تحتل المقعد الخلفي. كان الأمر جليًا، لكنه حاول ألا يُصدقه، عم دسوقي؟ ذلك الطاهر المصلّي الحافظ لآيات القرآن؟! وأم ليلى؟! أم ليلى، كانت أنثى رائعة التكوين كما ابنتها، لم يبدو عليها الكبر فكانت وكأنها أخت ليلى الكبرى، لكن الفرق بينهما أن جمال أم ليلى كان صارخًا لا تستطيع أن تنظر إليه كثيرًا، بينما ليلى جمالها هادئ يُريح النفس والعين والبدن. فكّر، تلك المرأة اللعوب بالتأكيد قد قامت بغواية عم دسوقي في المرة التي خرجوا فيها للعشاء في يوم خطبته على ليلى، وجعلته يأكل من ثمرتها المحرمة فلم يستطع الاستغناء عن جنتها من بعدها. فاق من صدمته فأخذ أفكاره ورحل، ومر في طريقه على ليلى في محل عم صلاح السعاتي وهو مهمومٌ يُفكر كيف يعيش هذا الرجل الطيب مخدوعًا طوال الوقت وكيف تنزل من رحم هذه المرأة تلك الليلى الجميلة البهيّة الطاهرة. رحلت ليلى معه وتناولا غداءهما في الخارج ثم ذهبا إلى المحل، وصمت أمجد رفيقهما، كان يُفكر كيف أن تلك الدنيا بها من السوء ما بها، أن يخرج الإنجليز في محاكمات هزلية بأيدٍ مصرية فيقتلون الفلاحين المصريين، وكيف عندما يفرون منهم فرارًا ويتشتت شملهم يُقتل شقيق سامح الذي لم يكن يطلب إلا العدل، وكيف يأخذون أراضي البشر فيعطونها لمن

يريدون دون أي ضمير أو عدالة، كيف يخون الإنسان من أجل شهوة عابرة، كيف يُصبح شيخ الإسلام وقد سلّم نفسه لشهوته؟ كيف تخون زوجة زوجها وقد غمرها بعطفه وطيبته ولم يكن له أبدًا غيرها؟ ما هذا القبح؟ ما هذه الحقارة؟

هو يُفكِّر في ذلك، احتلت صورة منير وسامح ومأمون وأصدقائه صادرة مخيلته. هؤلاء هم من يعيشون في الطهر، وباقي الدنيا رجسٌ ونجس.

قاطعت ليلى صمته وأفكاره:

مالك يا حبيبي؟ أنت ساكت جدًا.

رد عليها بسكينة مبالغ فيها وكأنه حكيم هذا الزمان:

لأ يا حبيبتي، مفيش حاجة. شاغلني بس إن منير صديقي اللي حكيت لك عنه طوِّل في سفره أوي المرة دي، خايف يكون حصل له حاجة.

احتضنت يده لتطمئنه، وهو يفكر: هل تُصبح ليلى الحبيبة المقربة مثل أمها يومًا؟ طرد الفكرة من باله مباشرة واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، واستأذنها فتوضأ وصلى لعله يُذهب الوساوس ويرحمه.

وحاول ألا يتغيَّر من ناحية عم دسوقي، محاولًا إقناع نفسه بأن كل ابن آدم خطَّاء، والمشكلة عند تلك اللعوب التي أغوته وأهانت شيبته.

لكن المصائب لا تأتي فرادى، فما إن مر أسبوع إلا وأتاه اتصالٌ غامضٌ يدَّعي أن عنده خبرًا يجب أن يعرفه. لم يُخبره عن اسمه، وقال له: "إن كان يُريد أن يعرف الخبر فليأتيه في كازينو الشاطبي العاشرة مساءً"، ورفض المتصل أن يكشف عن هويته وأخبره أنه سيتعرف عليه وقتها.

فكر أمجد وقرر الذهاب، لا يضيره الأمر إن وجدها مزحة، لكنه سيندم إن لم يذهب معتقدًا أن أمرًا هامًا قد فاته.

ذهب في الموعد وبعد مرور ربع ساعة من الساعة العاشرة همَّ أن يرحل مُعتقدًا أنها كانت مزحة ثقيلة من إنسان سمج، قبل أن يوقفه أحدهم قائلًا:

أستاذ أمجد، أنا آسف إني أخرتك.

نظر إليه أمجد متفحصًا لملامحه قبل أن يجلس مرة أخرى قائلًا:

إنت اللي اتصلت بيَّ.

أنا اللي اتصلت بك.

ممكن أعرف إنت مين؟

مش المهم أنا مين، المهم إيه اللي عاوز تعرفه، لكن عمومًا أنا بنيامين،

ثم اقترب بوجهه من وجه أمجد وبضحكة صفراء أكمل:

ابن توني، اللي كنت خطيب ليلى.

قام أمجد فورًا كأن حيَّة لدغته، فطوال هذه الفترة لم يحتك أمجد بهذا الجزء من عائلة ليلى ولم يرَ ابن خالتها هذا أبدًا.

تراجع بنيامين للوراء قائلًا:

اقعد يا أمجد، الموضوع فيه مصلحتك.

تريث أمجد قليلًا ثم جلس:

وانت تهمك مصلحتي في إيه؟

ما تهمنيش مصلحتك الصراحة، بس قل إن مصلحتك فيها تخليص حق ليَّ.

إيه الموضوع واختصر.

اعتدل بنيامين ونظر إلى أمجد بقوة وبدأ الحديث... وبدأت الدنيا في السقوط على رأس أمجد:

عم دسوقي وأبويا بيغسلوا فلوسهم عندك، والبضاعة الرخيصة اللي بيشتروها لك بيدفعوا ثلاثة أضعاف تمنها، أصلهم بيهربوا فلوس بره، وبيعدوها على حساب بضاعتك، بعض الفلوس بتروح لأصحابها مباشرة، وبعضها بيروح لتجار سلاح، وبعضه بيرجع مكانه بودرة في قعر الحاويات اللي فيها بضاعتك.

أصحابه مين وسلاح إيه وبودرة إيه اللي بتتكلم عنها؟

اقترب منه بنيامين بابتسامته الصفراء:

أصحابه اليهود في أرض الميعاد اللي بيهاجروا ليها من مصر، أرض إسرائيل، والسلاح بيروح ليهم، والبودرة دي هروين سعادتك، وكله بيعدي بالرشاوي والمصالح، ولو اتشم خبر وأي حاجة اتمسكت، هما هيطلعوا منها زي الشعرة من العجين، البضاعة دي يملكها واحد اسمه أمجد. فهمت ولا أقول تاني؟

قام أمجد من مكانه والأرض تدور به وانفلت الكلام منه بصوتٍ عالٍ دون مراعاة للمكان:

إنت كداب.

تلفت بنيامين حوله قائلًا:

اقعد بس و اخفض صوتك، الناس حولنا. أنا ممكن أثبت لك إن كل كلامي صح.

إزاي؟

بكرة كلهم هيبقوا سهرانين في بيتنا. هتيجي بدري هدخلك وأسيب لك مكان تراقب منه وتسمع، وانت اللي هتقرر، وبعدها هتيجي تشكرني إني شلت الغمامة من على عينيك.

بعد تردد وافق أمجد وأخذ العنوان والموعد ورحل، وكأن كل كمال الدنيا قد نقص وعلى رأسه انهدم.

وعندما اختلى بليلى ليلًا، سألها عن رأيها فيما يحدث من تهجير اليهود لأرض فلسطين، وما رأيها في أرض الميعاد المزعوم، وفي عصابات تهريب الأموال واليهود من مصر إلى عصابات الهجاناه، فاستغربت السؤال وسألته لماذا يسأل؟ فأخبرها أنه فقط يُريد أن يعرف منها فهي بالتأكيد عندها من المعلومات بهذا الأمر أكثر مما يملك هو، فحكت:

أنا مؤمنة بأن كل واحد له وطن اتولد فيه وسكنه، أنا مثلًا مصرية مستحيل أتخيل نفسي عندي جنسية غير جنسية بلدي. الموضوع ليس له علاقة بأني يهودية أو مسلمة أو مسيحية، الدين لا علاقة

له بجنسيتي المصرية، الدين دين والوطن وطن. في يهود مثلي مؤمنين بكده، وزي بابا، وفي يهود تانيين مؤمنين بأن أرض فلسطين هي حق اليهود إنهم يتجمعوا ويبنوا فيها وطن يهودي.

وأمك من الناس دي؟

أشارت برأسها بالإيجاب قبل أن تكمل:

للأسف أيوه، وكتير من اليهود مثلها، انتماؤهم لفكرة الدولة اليهودية أكبر من انتمائهم للدولة التي اتولدوا واتربوا وعاشوا بها.

وعصابات التهريب؟

أسمع عنها بس معرفش تفاصيل كتير، في نشطاء يهود بيهربوا أموال وسلاح لليهود اللي بيحاربوا العرب في فلسطين، الصهاينة اسمهم، والبداية مكنتش عند اليهود، البداية كانت عند أوروبا اللي كانت عايزة تسيطر وتهيمن على العالم فعملت مشروع بناء دولة يهودية في فلسطين، ولما المشروع نضج، ركبت الجماعات الصهيونية عليه وبدأت تستغله وتدعو يهود العالم لبناء وطن لليهود وفق إرادة الرب إله إسرائيل، مع إن الموضوع كان مصالح دولية وملهاش أي علاقة بإرادة الرب... إنت لو قعدت مع بابا هيحكيلك الحاجات دي بتفاصيل أكتر، بابا من أشد المعارضين للصهيونية، وخلافاته مع ماما زادت عشان الموضوع دا بالتحديد.

بلع أمجد ريقه قائلًا في نفسه أن هذه أقل مشكلة بينه وبين زوجته لو يعرف ماذا تفعل من وراء ظهره، لكنه ارتاح لكلام ليلى. ليلى وعم صلاح ليسا كالصهاينة الذين يحاولون سرقة أرض العرب وسيدحرهم العرب بكل تأكيد، كما يفعل أصدقاؤه الآن.

لم يستطع أمجد النوم تلك الليلة منتظرًا موعده مع بنيامين على أحر من الجمر، وفي الموعد ذهب.

أدخله بنيامين خلسة إلى حجرة في الطابق الثاني المرتفع عن الأول بُسلم داخلي، وهي حجرة تُطل على مكان واسع يُستقبل به الضيوف.

وانتظر أمجد قرابة الساعة رافضًا أن يشرب القهوة التي قدمها له بنيامين، وأتت أم ليلى أولًا ليستقبلها توني بالأحضان والترحاب، ثم أتى فحلها الصعيدي لتستقبله هي بقبلة محمومة طويلة غير آبهة بتوني الجالس ولا أختها التي أتت، وجلسوا جميعًا ورائحة الخمور والحشيش قد ملأت الدنيا من حولهم، وكلٌ من الرجلين يُلاطف امرأته أمام الآخرين دون حساب، ولم يقطع عليهم جلستهم الضاحكة إلا دخول بنيامين.

لم يعتدل أو يتحرك أحد من مكانه، أو يتوقفوا عن العبث، لكن توني تغير وجهه موجهًا كلامه له قائلًا:

عايز إيه يا بنيامين؟

فردت أمه:

سيبه يقعد معانا يا توني، تعالي يا بنيامين براحتك.

فعلق عم دسوقي باستهزاء:

أيوه تعالى بسحنتك دي، ما أعرفش ليه ماخدتش حاجة من حلاوة أمك.

ضحكت أم بنيامين قبل أن ترد:

ما الواد زي القمر أهو، بس والنبي يا دسوقي بيه قلت لتوني إنك عينك مني، بس خد بالك البنت اللي في حضنك دي بتغير عليك.

فضمها عم دسوقي مُقبلا لها:

دي البنت اللي في حضني دي حتة من قلبي، بس الله جميل يُحب الجمال، وأنا عند الجمال بقول آمين!

ضحكوا جميعًا وأرسلت له أم بنيامين قبلة على الهواء، قبل أن يقاطعهم بنيامين بغضب:

إنتم قاعدين في فرفشة وهناء مع إنكم حرمتوني من الفرحة، حرمتوني من ليلى، كنا هنكون قاعدين معاكم دلوقتي.

تصاعد الدم في رأس أمجد عندما سمع اسم ليلى يُذكر بهذه الوقاحة في مثل هذه الجلسة القذرة وكاد أن يخرج فيبطح رأس بنيامين بأي شيء لكنه تماسك حتى يعرف كل الخبر.

رد عم دسوقي على بنيامين:

إحنا مش خلصنا من الموضوع ده؟

لأ ما خلصناش يا دسوقي بيه، الموضوع دا عمرنا ما هنخلص منه.

رد توني وهو يعتدل ويترك زوجته:

يا واد يا خايب الستات بتروح وتيجي وكل واحد وشطارته مع الستات، وانت طلعت خايب ومعرفتش تخطف ليلى، يبقى نبدي المصلحة.

وإيه المصلحة اللي تخليكم تجوزوا ليلى لمسلم؟

رد عم دسوقي:

الله، شكلك هتغلط، ماله المسلم يا يهودي يا نتن؟!

تجاوز توني مزحة عم دسوقي وأجاب بنيامين:

مصلحة إنه واد خام ربطناه بالجوازه دي، وبنهرب باسمه كل حاجة عايزينها داخل وخارج وهو ولا عارف أي حاجة، مشغلين شغلنا تمام وفي الأمان، بشرف أمك في مصلحة أحسن من كده؟

بعتوا مصلحتي عشان مصلحتكم.

رد عم دسوقي بنفاد صبر:

ولد، بلاش حرقة دم، مادام ماعرفتش تخليها تحبك يبقى ما تستحقهاش، طلع ليلى من دماغك وما يبقاش دماغك صغير، وخد بالك أمجد دا زي ابني.

ضحك بنيامين بسخرية:

ابنك إزاي؟ دا انت لسه قايل إن كل حاجة بتعملها معاه مصلحة وبتستغله.

يا أخي إنت مال أهلك؟ واحد بيستغل ابنه، مال أهلك إنت؟!

وقام عم دسوقي وقد فقد أعصابه فدفع أم ليلى من فوق رجله:

يا أخي القعدة والواد دا موجود تقصر العمر، أنا ماشي من الجو الزفت دا.

قاموا جميعًا يحاولون إثنائه عن الرحيل وهم يسبون ويلعنون بنيامين، لكنه كان قد قرر وتعكر مزاجه وانتهى الأمر، فأصر وارتدى ثيابه وقناع وجهه ورحل، فدخل توني حجرته والحنق يملأه، وارتدت أم ليلى ملابسها وهي تحمل حنقًا مشابها ورحلت، وعندما

خطَّت قدمها الباب، أسرعت أم بنيامين فبدَّلت ثيابها وخرجت متلهفة.

وعندما أصبحت الأجواء مناسبة دخل بنيامين لأمجد، فبادره أمجد بضربةٍ على وجهه لأنه ذكر زوجته، وتلقَّاها بنيامين بصمت، ودون أن يتبادلا الحديث رحل أمجد فركب سيارته واتجه إلى قصر عم دسوقي، فتحوا الباب له فانطلق بدون استئذان ودخل ليجد أم بنيامين في أحضان عم دسوقي وقد تخففت من ثيابها.

انصدم عم دسوقي وانصدمت أم بنيامين محاولة جمع بعض الثياب على جسدها الشبه عارٍ، لكن أمجد لم يمهلهما وانفجر في عم دسوقي كيف أنه وثق به واعتبره أباه لكنه خان ثقته واستغل طيبته وقلة خبرته.

لكن جاء رد فعل عم دسوقي غير متوقع، جذب أم بنيامين إلى صدره، وعرَّاها مرة ثانية، قائلا بدون اكتراث:

أديك عرفت، الموضوع مصلحة لنا كلنا، وانت ابني ومصلحتك مصلحتي، وبعدين انت بتحسب مين هيورثني غيرك لما أموت؟ أنا ناوي أكتب لك كل فلوسي وأملاكي.

نظر إليه أمجد باشمئزاز شديد:

فلوسك نجسة مش عايز منها حاجة.

استشاط عم دسوقي غضبًا قائلا:

إلزم حدودك، اتكلم بأدب معايا.

حاضر، هلزم حدودي، بس انت ونجاستك كلها هتخرجوا من حياتي، ومش عايز شراكتك.

يبقى كمان تطلق مراتك.

اللي هيقرب منها هقتله.

ضحك عم دسوقي طويلا ثم قال:

مراتك معانا، شريكة، وعارفة كل حاجة.

إنت كذاب.

قام عم دسوقي كأن عقربًا قد لدغه وأخرج مسدسًا صغيرًا كان في طيات ملابسه وأشهره في وجه أمجد وهو يقترب منه حتى لامست فوهة المسدس رأسه، قبل أن يخفضه قائلًا:

صدقني يا بني، ليلى مشاركة معانا، أنا ما قصدتش أخبي عليك، أنا بحبك من قلبي، بس انت مكنتش هتفهم دلوقتي إيه اللي بنعمله.

تحرك أمجد نحو الباب دون أن يُعقّب، ورحل.

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وقد سبقته ليلى إلى البيت لأنها تعرف أنه سيخرج في شأنٍ خاص بالعمل وسيظل متأخرًا بعض الوقت، لكن القلق أصابها عندما دقت الساعة الثانية عشر ولم يأتِ بعد، وأصابها القلق أكثر مع كل دقيقة مرت بعد ذلك.

وعندما أدار مفتاحه في الباب كان وكأنه أعاد روحها إليها، وذهبت إليه مستفسرة، فوجدت وجهه كقطعة الدم، فسألته بفجيعة:

مالك؟ عامل كده ليه؟

أبعدها عنه وهو ينظر إلى عينيها مباشرة قائلًا:

كنتِ عارفة اللي بيعملوه وساكته؟ شريكة معاهم؟ ارتسمت كل علامات الخوف والحيرة عليها ونطقت بلسان متلعثم:

مين اللي بيعملوا إيه، ومشاركة مين؟

أنا عارف إنك كنتِ عارفة، عرفتِ كل حاجة، عرفتِ غسيل الأموال وتهريب السلاح والهروين.

إنتِ بتتكلم عن إيه؟ أنا مش فاهمة بتتكلم عن إيه. قص عليها الأمر كله دون أن يحكي لها وساخات أمها وخالتها، اكتفى بذكر أنهم مشاركون معهم في الأمر. استمعت إليه حتى إذا ما وصل إلى ذكر المسدس وقسم عم دسوقي له بأنها شريكتهم، إنهار ما بقي من مقاومة جسدها وسقطت مغشيًا عليها. انخطف فؤاد أمجد وبكل ما يعرف من معلومات عن الإسعافات الأولية حاول إفاقتها حتى أفاقت وهي لا تشعر بما حولها بشكلٍ كامل. وفجأة عاد إليها تركيزها مرة واحدة فانزوَّت في ركن السرير ضامة ساقيها إلى رأسها تبكي بحرقة وشعرها الجميل يُغطيها بالكامل تقريبًا. لم يتحمل أمجد بكاءها فحاول أن يحتضنها ليُهدئ من روعها، فأزاحته بيديها وهي تطلب منه أن يبتعد من فضله. فجلس بجوارها يبكي هو الآخر. وبعد مضي ساعتين من الصمت وبعدما جفت منابع الدموع وارتوت أرضهما بها، نطقت الألسنة. فبادرها أمجد بالتفاتة مفاجئة ودون أن يقترب منها:

أنا آسف، بس الموضوع كبير عليَّ وصدمة شديدة. أنا مش عايز غير إنك تقسمي ليَّ بأنك مالكيش علاقة بالموضوع وأنا هصدقك.
بسخرية ردت:

أقسم لك بالمصحف، ولا بالتوراة.. ولا حل وسط واقسم لك بالمسيح الحي؟ رد برجاء:

أقسمي بأي حاجة، أو قوليلي من غير ما تقسمي، قوليلي إنك مش مشاركة. نظرت إليه نظرة يملؤها الحزن قائلة:

هل ممكن بعد كل اللي الوعود والأماني والأحلام التي عشناها أكون في موضع شك؟! أنا عرفت عم دسوقي عن طريقك، وانت عارف إن معرفتي بأمي أو توني لا تسمح لي بمعرفة أسرارهم. صادق قولها هوىً في نفس أمجد الذي لا يُريد إلا تصديقها، فاقترب من رأسها على الفور يُقبله. فابتعدت عنه، فتراجع قائلًا:

حقك عليَّ يا ليلى، أنا آسف، مكنش المفروض أشك فيكِ مهما قالوا. صعوبة الموقف أخلّت بتفكيري المنطقي، الدنيا كلها طلعت كذبة، وكنت على وشك تكذيب كل الناس. كان يتحدث وقد عادت دموعه لتتساقط دون توقف، وقلب ليلى يبكي معه، فليس هناك من حبٍ كالذي بينهما، وقلبها الرقيق لم يقسُ على أحد ليقسو على حبيبه. اقتربت منه واحتضنت رأسه قائلة:

حصل خير، الناس ولاد كلب، بس إحنا مش كده يا أمجد. احتضنها من خصرها وانتحب، وانتحبت هي على انتحابه، وهي تعلم في قرارة نفسها أنها لن تسامحه على شكه بها، وهو يعرف أن هناك شيئًا ما بينهما قد انكسر ولن يُصلحه البكاء.

لم تعرف أعينهما طريقًا للنوم حتى أذن فجر هذه الليلة الحزينة، فتوضأ بعدما توضأ مائة مرة بدموعه ودموع ليلى، وذهب إلى مسجد قريب فصلى. ثم خرج إلى شاطئ البحر فجلس كما كان يفعل أيام حبه الأولى لليلى.

كانت أول مرة من بعد زواجهما يذهب إلى البحر بدونها. جلس يُفكر في كل ما حدث له منذ وفاة والده، حتى ظهرت الشمس واشتد عودها. فذهب إلى المحلات ليتونس بالناس والعمل، وعندما وصل، وبرغم من أن عقارب الساعة كانت تُشير إلى العاشرة صباحًا، كانت المحلات مُغلقة. لم يفتح توجو اليوم ولم يأتِ أحدٌ من العاملين. نزل من سيارته وجلس على الرصيف واضعًا رأسه بين يديه مُحدثًا نفسه: "صدق عم محمود، فما إن انقلب عم دسوقي علي حتى سحب كل العاملين عندي في لمح البصر. فلم تمر ليلة إلا وقد امتنع العمال عن الحضور انصياعًا له. لو كنت خبيرًا بالعمل ما كان تحكم بي أحد..." عند ذكر عم محمود قرر فأخذ سيارته وذهب إليه. ذهب ليعتذر له ويُخبره أنه كان عنده ألف حق. وحينما وصل، استقبله صوت القرآن يملأ المكان بذكر حكيم، والشارع به حركة غير معتادة، والسواد يلف النساء. فترجل من سيارته وبدأ في صعود السلم وقلبه متوجسٌ فأسرع الخطى، وعند الباب المفتوح اندفع إلى الداخل يجري، وعم محمود مُغطى بملاءةٍ بيضاء وساقيه مفرودتين فوق سريره في اتجاه القبلة. وبجواره يجلس أحدهم يقرأ القرآن، لكنه توقف عند دخول أمجد. عرفه وأخبره الخبر وهو في ذهولٍ تام لمدة دقائق، قبل أن تتساقط دموعه دون بكاء أو نحيب، تتساقط وملامحه الذاهلة مازالت

مرسومة على وجهه. عم محمود مات. مات والآن فقط فعلها. دفنوه، وتلقى عزاءه ونفسه تعتصره من الندم والألم. كيف أهمل عم محمود واشترى الدنيا بدلًا منه؟ كيف باع صديق والده ليرتمي في أحضان ذلك الشيطان المرسوم على وجهه رسم ملك! هدَّته التفكير والتعب حتى جنَّ الليل، فانفض المعزون وعاد إلى البيت ليجد تلك المسكينة التي تركها لا تعرف عنه شيئًا منذ الفجر. وجدها وقد قارب الموت أن يُصيبها بسهمه من كثرة القلق. وعندما رأته قامت فضربته بكلتا يديها في صدره وهي تبكي:

توقف عن الأنانية، إنت أصبحت أناني كده ليه؟ إزاي تقلقني عليك كده؟ فاحتضنها حتى ذابت ضرباتها واستسلمت، وقصَّ عليها ما حدث بكلمات ظاهرها الإرهاق وباطنها المرارة والألم. فاحتضنته كأمٍ وقد اشتاق إلى مثل ذلك الدفء الطاهر، لما تعزه بالكلمات بل بتواصل دقات قلبيهما في عناقٍ طويل حتى أحست بسكينة روحه قليلًا. فبحزمٍ وإصرار أخبرته:

مش لازم نستسلم. هنفتح إحنا المحلات وهنبحث عن ناس تشتغل وهيجيلنا بدل العامل عشرة. وهنرجع شغلنا ومش هنحتاجهم.

الموضوع مش سهل كده. أنا معرفش أماكن الشراء ولا هنا ولا الاستيراد. ولازم نجيب خياطين كفء، وأنا معرفش الكفء من غير الكفء. ممكن ييجي واحد يقولنا إنه أحسن خياط ويطلع رديء ويخسرنا شغلنا ونخسر بالتالي سمعتنا في السوق.

جربه الأول قبل ما تشغله.

ما أنا مش هعرف لما أجربه إن كان شغله جيد أم رديء. عم محمود الله يرحمه هو اللي كان ممكن يعرف. ياريتني سمعت كلامه وتعلمت الأول.

هنقعد نندم كده يبقى هنشمتهم فينا. لازم نهزمهم وما نخلهمش ينتصروا علينا أبدًا.

كان كلامها مشجّعًا، لكنه قابل وهَنًا في نفس أمجد، كان غضًّا أخضرَ والدنيا تضربه كل يومٍ ضربةً أقوى من سابقتها، بين فقد الأهل وفقد الإيمان بالبشر.

نام ليلته وزوجته تحتضنه من الخلف، نام من الإرهاق والتعب ورأسه مشغول بتمني وجود منير في الإسكندرية ليقف بجواره في أزمته هو وليلى، فيشتد عوده بهما معًا.

وبعد خمس ساعات من النوم المتواصل استيقظ ليجد ليلى مازالت محتضنةً له، لكنه لم يأبه كثيرًا بتلك الصادقة الراعية له، تلك المحبة الحنونة المخلصة، وكان تفكيره كله منصبًا على منير، هل باعه كما باع عم محمود؟ وهاله أمر أن يفقده هو الآخر كما فقده، انفجع قلبه من الفكرة، فقام من فوره، فانتبهت ليلى، فطمأنها وقبل وجنتها فعادت إلى نومها.

أخذ حمامًا باردًا، وأعد حقيبته خلسة، وترك خطابًا صغيرًا بجوار ليلى كتب فيه:

"ذهبت في رحلة عمل قد تطول بعض الشيء، حتى لا أندم كما ندمت على عم محمود، ولو تأخرت تأكدي أني سأعود، لا تغضبي

مني، وكل ما قد تحتاجيه من الأموال ستجدينه في الخزانة، سيكفيكي حتى عودتي، لا تقلقي،

المحب دائمًا أمجد."

ترك خطابه وراءه ورحل، تاركًا خلفه قلبًا يقرأ كلماته كل ليلة ويبكي دما.

حرب ٤٨

أكثر ما في الدنيا سفاهات، وأكثر العاقلين تعقّلا تصرفاته إن انجلت الحقائق سيتضح أنها حماقات، والحزن متشبع في كل الطرق والزقاق والحارات.

هذه الدنيا بئيسة وإن انتشرت فيها الزغاريد والضحكات، فخلف كل وجه هم، وكل فرحة يأتي وراءها في الأغلب غم، وأنانية البشر لم ينجُ منها أحد إلا قليل، وكذلك أمطار الإسكندرية لمن سكن فيها.

فذلك الصباح كان مليئًا بزخات المطر، وشاب ذو لحية طالت بعض الشيء جراء عدم تهذيبها قرابة الأسبوع، يمشي رافعًا سترته الجلدية فوق رأسه وممسكًا بحقيبة سفر جلدية سوداء بنفس لون سترته.

استقل القطار والأمطار تصاحبه في رحلته وكأنها تغرق كل بر مصر في هذا الصباح المشبع بالحزن، ومن ورائه امرأة مكلومة دموعها تنافس دموع السماء في غزارتها وحزنها.

يتذكر أمجد ذلك اليوم وهو جالسٌ مرتديًا لملابس بدوية في الصحراء وحوله الأغنام ترعى والكلاب تحرس، أسبوع كامل مر على هذا اليوم، لا يريد أن يفكر إن كان اتخذ القرار السليم أم أنه قد أخطأ. كانت فكرة أنه لن يفقد منير كما فقد الجميع مسيطرة عليه،

وأنه سيعود لليلى بعد أن تهدأ النفوس والقلوب، وكأن ليلى عليها ذنب! وكأنها مخطئة!

يتذكر برودة الجو في ذلك الصباح، وقد ترك وراءه امرأته بدون تدفئة، وترك دنياها بحثًا عن دنيا أخرى في بلاد غير بلاده... أو موت.

كان الجميع في القطار وكأنهم قد أصابهم الخرس على غير عادتهم، فكُلٌّ ملتفٌّ بما يحمله من ثياب، وطفل صغير يحتويه أمه فلا يظهر منه إلا أنفٌ أحمر، وزوجها يحوطها بذراعيه، حتى الحقول على جانبي الطريق ليس بها بشر أو طير أو حيوان شارد، وكأن الدنيا قد انزوت وراء نافذتها الصغيرة لتشاهد المطر.

كان وحيدًا جدًا، كوحدته الآن أيضًا في ملابس البدو رغم دفء شمسهم.

لم يكن يعرف أن ليلى قرأت رسالته بعدما نزل بساعتين إلا قليلًا، فتوقعت أنه قد ذهب إلى محطة القطار ليستقله، فنزلت وراءه مهرولة بملابس خفيفة لا تناسب المطر، جرت تحته في الطريق دون الالتفات لأحد، جرت وجرت حتى وصلت لمحطة القطار لاهثة وملابسها تقطر ماءً، وشعرها قد تجمع في خصلات عدة نتيجة البلل، لم تجد القطار ينتظرها، ولا حبيبها، سألت وعرفت أن قطار القاهرة قد تحرك وأخذ معه من لم تُحب يومًا غيره، رجعت ودموعها مختلطة بدموع السماء فلا يعرف الناس أن يفرقوا بينهما، ودخلت بيتها، خلعت ملابسها المبتلة عنها ودون أن ترتدي غيرها جلست باكية تقرأ كلمات حبيبها المقتضبة،

جلست اليوم بطوله هكذا، حتى إذا أتى المساء باتت محمومة، وقد ضربتها الإنفلونزا بقوة مفرطة، فقضت ليلتها ترتعش من البرد وتهزي من الحرارة، ودموعها تنزل من ألم قلبها وحرارة جسدها دون توقف.

وفي الصباح تخيلت أن باب البيت يدق، حسبت ذلك أوهامًا قبل أن يدق الباب مرة ثانية فتقوم من فورها وهي كما هي عارية تجري نحوه لعل أمجد قد رجع، وعندما فتحت الباب خاب ظنها فزوجها لم يكن بالباب، لكنها اطمأنت للطارق فرمت نفسها في حضنه، حضن عم صلاح الساعاتي والدها الذي أخبره قلبه أن ابنته في محنة فأتى يزورها قبل أن يفتح محله. هاله منظرها فأغلق الباب خلفه وسندت عليه حتى سريرها دون أن تُجيب على تساؤلاته عما حل بها، لم تكن تقوى على الحديث، ووجد عم صلاح حرارتها مرتفعة ومرضها مشتد وكأنها قد قاربت على الموت، فاستدعى طبيبًا متلهفًا، الذي أخبره عندما أتى أن الحالة خطيرة ودرجة الحرارة تعدت الأربعين، والتهاب رئوي حاد قد أصابها، لكن بعد يومين تحسنت حالتها وعم صلاح مقيم معها إقامة كاملة بعدما اتصل بزوجته لتأتي لتمارضها فرفضت، رفضت حتى أن تأتي لزيارتها، عادت ببساطة إلى عادتها القديمة.

قضت ليلى هذين اليومين صامتة، لم تنطق بكلمة واحدة، ولا حتى تأوهت، وعم صلاح لا يعرف إلا ما قد قرأه في تلك الورقة التي تمسكها ليلى بشدة في يدها وهي نائمة، والتي خلصها من بين أصابعها بكل الحيل حتى قرأها.

بعد تحسن حالتها حكت له ليلى كل ما حدث، حكت والعار والذل والأسف يهبطون عليه ليحتلوا نفسه، والخزي من زوجته التي باعت ابنتهما من أجل المال ليس إلا، باعتها أولًا وثانيًا وستبيعها ثالثة إن استطاعت، وقرر أنه ومن اللحظة لن يكون له أية علاقة بتلك المرأة، كانت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل في أواخر شتاءٍ أبى أن يرحل قبل أن يعصف بقلوب طيبة، لكنه نزل ليحضر ملابسه وكل متعلقاته من بيته ليعيش مع ليلى ناويًا أن يكتفي بصحبتها لتغنيه عن صحبة الناس وصحبة زوجته.

زوجته التي مع كل فُجرها متمسكة به لأنه مصدر مضمون من المال، فالأكل بثدييها لن يدوم، فاليوم عم دسوقي كريم معها وغدًا سيقطر عليها، وصلاح الساعاتي طيب يتجاوز عن كل أفعالها وسهراتها وغيابها، ويخشاها كما كان يخشى أمه أو أكثر، فمن عندها زوج مثله لا يهش ولا ينش، يكن التمسك به غنيمة.

زوجته التي دخل البيت مُتجهًا لغرفته ليعد حقائبه ويرحل، ليجدها في أحضان رجلٍ آخر لم يتبين ملامحه في الظلام، لكنه تبين وجه زوجته اللاهث تحته. تقدم نحوهما ثم سقط.

مات عم صلاح الساعاتي في هذا اليوم بأزمة قلبية مفاجئة، لم يعرف أحد أسبابها، وكأن القدر أبى إلا أن تظل ليلى وحيدة، وحيدة كما لم تكن يومًا، رحل رجلها الذي تُحبه، وأبيها الذي لم يعطف عليها أحد مثله.

بينما أمجد قد أمضى يومين إلا قليلًا في رحلته التي طالت هذه المرة جراء الأمطار الغزيرة على الطرق الطينية والرملية، وحين

وصل كانت الشمس قد وصلت أيضًا لمغربها، وعرفه البدو بعد عناءٍ وشك من حالته الرثة، وتوسل إلى الشيخ أن يدله على طريقة يصل بها لأصدقائه لينضم إليهم، وبعد إلحاح شديد منه أشار له الشيخ أن يغتسل وينام ويتوسم خيرًا.. وقد كان.

في الصباح أرسل الشيخ أحد أبنائه إلى أمجد يخبره: "إن كان يُريد أن ينتظرهم حتى يرجعون من رحلتهم اليومية فليفعل، وإن كان يُريد أن يصحبهم فأهلًا"، فاختار أن يصحبهم فرجع بعد دقائق بملابس بدوية مناسبة له ليرتديها حتى لا يُثير الشبهات بثياب الحضر، وفي مكانٍ من الصحراء جلس الشيخ وأشار لأمجد بأن يجالسه، والأغنام ترعى وأولاد الشيخ حولها بعصيانهم الطويلة.

ساد الصمت الطويل بينهما، وأمجد لا يُفاتحه في الكلام مهابةً واحترامًا، حتى إذا اتخذت الشمس بداية طريقها للمغيب نطق الشيخ وأخبره أن أصدقائه قد ذهبوا إلى فلسطين لينضموا إلى المحاربين هناك ضد العصابات اليهودية، وأنه بعد أسبوع سيأتي دليل كي يصحبه إلى أقرب نقطة لهم.

تهللت أسارير أمجد وكاد أن يقوم فيقبل الشيخ من وجنته، لكنه اكتفى بعبارات الشكر الشديد، فنظر له الشيخ نظرة حنونة لم يألفها منه، نظرة بجانب عينيه مع إماءة من رأسه ثم عاد إلى صمته وانتهى الحديث بينهما، ولم يتكرر الحديث بينهما طوال ذلك الأسبوع، حتى أنه لولا بعض الحديث مع أبناء الشيخ لمات من الملل ومن الذكريات التعيسة.

مر الأسبوع عليه ببطئه، لكنه في كل الأحوال قد مر، وفي ذلك اليوم أتى الركبان فقضوا ليلتهم معهم حتى إذا تبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر قام أحدهم على جملين واصطحب أمجد في طريقهم للمجهول، بعد أن أعطاه الشيخ طبنجة صغيرة وأوصاه بإخفائها جيدًا لوقت الحاجة.

السفر على الجمال هو السفر بحق، منذ ركوب الجمل وطريقة قيامه يشعر الرجل بالسفر ويعيش فيه، وقد كان سفر أمجد كذلك، مع دليله في الصحراء ورفيقه في السفر "فواز".

فواز شاب في أواخر العشرينات، قوي البنية أسمر اللون مع حمرة خفيفة اكتسبها من الشمس، وكل جلد يظهر من جسده عليه وشم ما، وفي إصبعه الأصغر من كلتا يديه خاتم فضي بفص أسود كبير.

كان ودودًا مع أمجد، يظهر ذلك في محاولاته الدائمة أن يكون في خدمته، لكنه قليل الكلام، يتحدث نادرًا ليحكي أمرًا مر عليه في الصحراء من قبل ليكون دليل أمجد في هذا السفر وفي سفر الصحراء عمومًا، وقد استأنس أمجد بصوته الجميل الشجي حين يحدو للإبل فيطربه معه.

ساروا في طرق عدة ومن صحراء لصحراء وفواز يبدو أنه خبير في كل خبايا الصحراء والطرق ونقاط التفتيش، ينتظر أحيانًا لساعات بلا تحرك ثم يقوم من فوره فيتحركا في ساعة أخرى بناءً على معرفته بكل شيء قد يقابلهما في رحلتهم، حتى وصلا إلى سيناء فمشيا بمحاذاة البحر إلا قليلا.

اتفقا حال استوقفهما أحمد، فالأمر أن فواز بدوي يصطحب بدويًا آخر مصابًا بالخرس، وهما في طريقهما ليلحقا بقبلتيهما في سيناء، لكنهما لم يحتاجا أن يُخبرا أحدًا بهذا الأمر، فالطريق مر بهما بسهولة ويسر ودون مشاكل.

بعد أسبوع كان تاريخ اليوم يُشير إلى ٧ مارس ١٩٤٨ حين دخلا غزة سويًا، كانت الساعة الثانية عشر ظهرًا لكنهما لم يتوقفا ليلتقطا أنفاسهما واستمر بهما السفر ثلاث ساعات أخرى، وسط السكان الودودين، وبعدها نزل فواز من فوق ناقته فتبعه أمجد، فربط ناقة أمجد بناقته، فعرف أمجد أن مهمة فواز معه قد انتهت، وأشار عليه كيف يسير حتى يصل لأصحابه المتمركزين في مكان بعينه ينطلقون منه إلى ما يأخذهم إليه يومهم، فإذا استوقفه أحد فليخبره أنه رسول من الشيخ العربي إلى سامح المصري.. وكان الوداع بينهما، واتجه كل منهما إلى طريقه بعدما قدم أمجد جزيل الشكر لصاحبه.

ومع غياب نور النهار كان أمجد قد وصل إلى مقصده في مدينة المجدل أو عسقلان، وصل إلى تلك المدينة الزراعية التي كانت تشهد مثل غيرها هجمات عصابات الهاجاناه والإرجون والشتيرن الصهيونية، وعند نقطة بعينها استوقفه أحدهم، وعندما أخبره عن الراسل والمُرسل إليه دله على طريقه.

وأمام بيت صغير في أطراف المدينة كان يجلس بسلاحه ساندًا برأسه إلى الخلف وعينيه صوب السماء، وعندما اقترب القادم أدار عينيه ليخترق الظلام ليرى ذلك الشبح الذي يبدو على طريقة

مشيه أن التعب كاد أن يُقعده عن المشي، وبصوت زاعق سأل: من القادم؟ فلم يُجبه الشبح، حتى إذا اقترب التقت الأعين والأفئدة، وسامح يرى من اعتبره أخاه الصغير يأتي إليه في مكان غير الأماكن التي توقع أن يلتقوا فيها، وكان اللقاء حارًا بينهما.

كنت عارف إنك هتبقى معانا تاني، ليه وإزاي معرفش.

وأديني جيت ومش هسيبكم في حربكم دي أبدًا.

مش حربنا بس، دي حرب كل العرب، تعالى يا راجل يا طيب ادخل استريح، بس استنى نعملها لهم مفاجأة.

دخل سامح رافعًا يديه فوق رأسه، وأمجد وراءه كأنه أسيره، وحين دخل على هذه الهيئة قفز الجميع من مكانه ليجدوا أمجد خلف سامح يحمل غصن زيتون صغير، فالتف الجميع حوله مُرحبين ومبتهجين بحضوره بحب يليق بأهدافهم السامية، لكنه لم يلحظ وجود منير فسأل عنه، فأخبره سامح أنه سيأتي بعد ساعتين فهو في مهمة صغيرة مع حسن أحد أفراد السرية، فارتاح قلبه وانتظر، ثم تذكر أن مأمون أيضًا غائب فسأل عنه، فجاوبه الصمت فعرف أن مأمون قد استشهد، ذلك الضاحك المبتسم الذي كان ينشر الضحكات في أي مكان يكون فيه، ابتسمت له الجنة فرحل إليها شهيدًا.

وجلس سامح يحكي له عن تلك المعركة التي خاضها مأمون قبيل موته وكيف أنه أنقذ من بين أيدي العصابات الصهيونية عشرة أسر فلسطينية قبل أن يُقتل، بعد أن وصل بهم إلى نقطة آمنة. عاش ومات بطلًا.

ثم حكى له ما فاته من أهوال على الأرض من إرهاب وقتل وتهجير لآلاف الفلسطينيين، وأنه لا مكان آمن اليوم في فلسطين. فالعصابات لا تراعي فيهم إلا ولا ذمة وتقتل أي شيء يتحرك على الأرض، كان رجلًا أو طفلًا أو امرأة، حتى وإن كان حيوانًا قتلته. وأنهم مع فرق فلسطينية تكوّنت مع الثورة الفلسطينية إثر مقتل المجاهد الشيخ عز الدين القسام على أيدي الشرطة البريطانية في جنين، وفرق أخرى تكوّنت قبلها، يحاربون تلك العصابات ليل نهار. يدفعونهم أحيانًا، ويهاجمون على تجمعاتهم أحيانًا، ويبقى أن تلحق الجيوش العربية بهم ليدحضوهم ويردوهم عن بلادهم العربية خائبين.

امتد بهم الحديث، وقُبيل أذان الفجر دخل عليهم صديق عمره ولم ينتبه لوجود أمجد وسط أصدقائه، وبدأ على الفور رفع تقريره عن مهمته الصغيرة لسامح وهو يغسل وجهه ثم يرفع كوبًا من الماء ليشربه، لكن الماء وقف في حلقه وقد رأى ذلك الوجه المبتسم المحبب إلى قلبه ينظر إليه في حبور وفرح. وكان لقاؤهما عاصفًا مليئًا بالدموع، دموع الفرح.

لكن كما حمل أمجد لصاحبه مفاجأة حضوره، حمل له منير مفاجأة أخرى لم يُخبره بها سامح انتظارًا لمجيء منير ليخبره الأمر بنفسه. فقد تزوج منير من فتاة فلسطينية تعمل طبيبة، كانت قد طببته من إصابة لحقت به في إحدى غارات الصهاينة، ووقع القلبان في الحب، وألح عليهم الجميع أن يتزوجا ووافق أهلها في بلدها الأصلي "دير ياسين"، بينما هي تنتقل مع قوافل طبية متنقلة

لتطبيب الناس وإسعافهم. أخذ منير بعد ذلك دارًا صغيرة ملحقة ببيت رجل فلسطيني خيِّر، فأقام بها هو وزوجته "أمنية".

وأصر منير أن يأتي معه أمجد ليبيت معه هذه الليلة، ولم يجد أمجد مفرًا من تلبية دعوة صديق عمره. وبعدما عرّفه على زوجته وعرّفتها به حين وصولهما للمنزل، أعدت أمنية كل ما تستطيع أن تعده للطعام في هذه الساعة المبكرة من اليوم وقد أذن فجر يوم جديد. فأكلوا، وقبل أن يحكي أمجد بدوره أخباره، غلبه النوم فنام ولم يستيقظ إلا مع غروب شمس اليوم الجديد من التعب.

استيقظ فلم يجد أحدًا بالبيت، فاستحم وجلس بعض ساعة لتأتي أمنية أولًا، كانت ودودة وتعتبره أخًا لها بما أن منير يعتبره أخاه. ويبدو أن منير قد حكى لها الكثير عنه قبل وبعد مجيئه، ولم تجد هي حرجًا أن تكون بالمنزل هي وأمجد بمفردهما، لكن أمجد وجد بعض الحرج فاستأذنها بالجلوس في الهواء أمام البيت. فأعدت له طعامًا وأحضرت له في مكانه، فأكل، ثم أعدت الشاي لكليهما وجلست معه أمام المنزل تحكي له عن فلسطين ومدنها وعن تاريخ وجود الصهاينة في بلادها في ظل الانتداب الفلسطيني.

كانت مثقفة، لكنه عرف لاحقًا أن الشعب الفلسطيني علم نفسه وهذبها بالثقافة حتى يقاوم ذلك التهويد الذي يسعى له العالم الآثم لأرضهم.

أمنية، كانت بجانب عملها في الطب محاربة، تعلمت فنون القتال وفنون استخدام معظم الأسلحة اليدوية. وقد شاركت مع المقاومة في صد بعض غارات الصهاينة، وملامحها الدقيقة

الجميلة بوجهها القمحي وجسدها الذي يبدو عليه القوة رغم نحافته كانت أدلة على كونها محاربة لا تختلف في الجسارة عن الرجال.

وحين حضر منير انضم إليهم، فأخبره أمجد بما يجول في صدره عن مهارة أمنية الحربية، فوافقه وأخبره بعض بطولاتها في إجلاء مرضى من ساحات معركة قبل إسعافهم.

وبعد ساعة من الحديث المرح المليء برائحة الموت رغم مرحه، استأذنا أمنية ليذهبا إلى تجمع أصدقائهم، وشكر أمجد أمنية على الطعام والشاي وضيافتها له. فاستنكرت وأخبرته أنه أخٌ لها.

وفي الطريق تمهل أمجد ومنير الخطى، ودارا في المدينة بعض الشيء ليحكي أمجد لمنير كل ما فاته من أحداث وقعت في الإسكندرية. وحزن منير كثيرًا على ما أصاب صديقه من غش الناس وفواجع الأمور، لكنه رغم طيبة قلبه لم يتعاطف مع ليلى التي تركها وراءه، لم يتعاطف معها لكونها يهودية!

وبعد ساعتين من السير في أنحاء المدينة، توجها لرفاقهما وانضما إليهم، وسلم أمجد نفسه ليكون فردًا عاملًا من أفراد سريَّة سامح المصري.

كانت سريتهم سرية راحلة، تستقر في مكان ما بضع أسابيع، ينضمون لسكان المكان في عملياتهم العسكرية، ثم يرحلون إلى مكان آخر تحدث فيه هجمات الصهاينة بطريقة أكثر كثافة، أو ليهجموا على تجمع من تجمعاتهم، في حرب طويلة لا تنتهي

سميت بحرب الانتدابية ضد الانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية.

وبعد يوم واحد انتقلوا إلى القدس، أصحابه ومنير وأمنية، ومع مجموعات فلسطينية غير نظامية خططوا لعملية ونفذوها بدقة في أحد أيام شهر مارس ١٩٤٨.

تحركوا في خفية، ووضعوا العبوات الناسفة حول مقر الوكالة اليهودية في القدس، وتم نسف الوكالة بشكل كامل ليتم مقتل ١١ صهيونيًا وجرح ٨٦ آخر. كانت عملية كبيرة وفرحة الجميع بها عظيمة.

وسط هذه العمليات البطولية والفر والكر، حكت لهم أمنية أن قريتها دير ياسين قد وقعت منذ أسابيع معاهدة سلام مع الصهاينة بناءً على طلب قاطني المستوطنات اليهودية المجاورة، وكان ذكر هذا الموضوع مؤلمًا لأمنية، فليس من المفترض توقيع أي معاهدات بين أصحاب الأرض والمعتدين.

لكنها شرحت لهم طبيعة الأرض والسكان التي دفعت أهل القرية إلى أن يوافقوا على مثل تلك المعاهدة. فأهل القرية يشتغلون بالبناء وعندهم ٤ كسارات للحجارة جعلتهم من ميسوري الحال، وقضاء حاجاتهم يقتضي عليهم المرور من مستوطنة جفعات شاؤول المجاورة. فالقرية محاطة بالمستوطنات الصهيونية، فكانت المعاهدة أن لا يسمح أهل القرية بمحاربة العرب للصهاينة انطلاقًا من قريتهم، وبالمقابل يسمحون لهم بالمرور من مستوطنة جفعات شاؤول دون أن يتعرض لهم أحد.

لكنها كانت غير راضية على كل ذلك، فالصهاينة لا عهد لهم، وكانت قد قررت أن تسافر لأهلها في دير ياسين، تزورهم من ناحية، وتعبر لهم من ناحية أخرى على سخطها من تلك المعاهدة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، لكن عجَّل سفرها قبل انتهاء المعركة خبرٌ جاءها بأن والدها مريض بشدة، فتركت منير مع أصحابه ورحلت مع بعض المرتحلين إلى دير ياسين مساء يوم ٧ إبريل ١٩٤٨.

رحلت والمعارك الضارية مشتعلة بينهم وبين عصابات الصهاينة، فعصابات الهاجاناه قد شنت هجومًا ليحتلوا ممر باب الواد المؤدي للقدس، لكنهم فشلوا، فشنوا هجومًا آخر كاسحًا حتى وصلوا إلى قرية القسطل وهي قرية في منطقة مرتفعة تشرف على الطريق الواصل بين القدس ويافا. وقد كان انتصارًا لعصابات الهاجاناه بعد انتصارين للقوات العربية بقيادة المُجاهد عبد القادر الحسيني في معركتين مهمتين في القدس، وهي معركة شعفاط ومعركة الدهيشة، واللتين أدتا إلى حصار خانق على مستوطنات الصهاينة، ولأن قرية القسطل هامة كموقع استراتيجي، تحرك عبد القادر الحسيني ليطلب من الجامعة العربية أن يمدوه بالسلاح والمال الذي توفر لديهم بالفعل، لكنهم لم يعطوه شيئًا خوفًا من غضب الإنجليز، فرجع خالي الوفاض ليس له إلا المجاهدين الفلسطينيين ومن انضم معهم من مجاهدي مصر وسوريا. وقد قال لمندوبي الجامعة العربية ما تناقله عنه رجال المقاومة هذه الليلة، حيث قال: "إنني ذاهبٌ إلى القسطل وسأقتحمها وأحتلها وإن أدى ذلك إلى موتي، والله لقد سئمت الحياة وأصبح الموت أحب إلى نفسي من تلك المعاملة التي تعاملنا بها الجامعة، إنني

أصبحت أتمنى الموت قبل أن أرى اليهود يحتلون فلسطين، إن رجال الجامعة والقيادة يخونون فلسطين".

وقد شن الصهاينة هجومهم في أوائل شهر إبريل على دير الحسينية وممر باب الواد في نفس الوقت، وتمكنت المقاومة تحت قيادة الشيخ حسن سلامة من صد هجومهم على دير الحسينية، وقبل أن يتحرك لدعم المقاومين عند القسطل، جدد الصهاينة هجومهم فاضطر إلى البقاء ليدفع عن دير الحسينية الخطر، وتمكن الصهاينة في هذا الوقت من دخول الممر واحتلال القرية بعدما نفذت ذخيرة الخمسين مقاومًا المخوَّل إليهم حمايتها، دون أن يأتي لهم مدد، لكنهم تجمعوا مرة ثانية تحت قيادة كامل عريقات وتمكنوا من احتلال مشارف القرية وتكبيد الصهاينة خسائر كبيرة وحاصروهم ومنعوا وصول الإمدادات إليهم. لكنهم افتقدوا الذخيرة ليتمكنوا من دخول القرية واستعادتها من المحتلين، حتى رجع إليهم القائد عبد القادر الحسيني فنظم الصفوف من ٥٠٠ مقاوم عربي بعد إصابة كامل عريقات، ودخول فصيل مدفعي صغير معهم المعركة، لكنهم لم يستطيعوا رفع المدافع لأماكن قادرة على ضرب الصهاينة في القرية، فتعاون الجميع من أهل المنطقة فعبَّدوا الطريق ليكون صالحًا، وانتهى الأمر بهجوم شامل على الصهاينة، والمقاومون يحملون أرواحهم على أكفهم، وكان الهجوم أقوى من أن يصده الصهاينة فقتلوا ١٥٠ صهيونيًا وجرحوا ٨٠. لكن فرحة النصر لم تكتمل، وقد ارتفع عبد القادر الحسيني القائد البطل والملهم إلى السماء شهيدًا، بعدما أذاق الصهاينة الويلات وكأنه يملك جيشًا عتيدًا، حتى أن الصهاينة

في أكثر من مناسبة ادعوا أن جيش عبد القادر الحسيني الصغير مليء بجنود ألمان يحاربون معه، لكنه في الحقيقة كان جيشًا عربيًا خالصًا.

وفي هذه المعركة قتل أمجد لأول مرة في حياته، قتل ثلاثة صهاينة دفعة واحدة، وجرح آخرين.

أن تقتل لأول مرة كأنك تكتشف عالمًا جديدًا لم تعشه من قبل، وأنت ترى إنسانًا يسقط بيديك ونظراته مرعوبة وقدميه ترتعشان بطريقة غريبة ثم يسكن الجسد وترحل الروح. تجربة، بالرغم من قسوتها على القاتل للمرة الأولى، إلا أنها تشعره بالقوة، بالقدرة على أن يفعل أي شيء، تُشعره بأنه إله فوق البشر يستطيع أن يحصد من أرواحهم كيفما يشاء، ويشعر بالراحة جراء ذلك.

كانت كل تلك الأحاسيس تختلج في نفس أمجد، وعندما جلسوا وعرف سامح أن أمجد قد أصاب العدو وقتل، ابتهج به وأثنى على شجاعته، لكن في غمرة فرحهم به ذكره بأن من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا فلا تقتل إلا بالحق، فكأن أمجد كان يحتاج إلى تلك الكلمات ليُهذب انطلاقته، فسكن قلبه وخشع.

وجلسوا باقي الليل في حذر يتسامرون، وحكى لهم سامح عن الشيخ المجاهد الشهيد الكثير.

وفي عصر يوم ٩ إبريل ١٩٤٨ كان الأصدقاء يجلسون يرسمون الخطط، حين أتى الخبر أن هناك أمرًا جللًا يحدث في دير ياسين، انتفض منير حينما سمع الاسم وهو يصرخ باسم أمنية، ولم ينتظر فقفز في عربة وانطلق نحوها، لكن أمجد وسامح لم يتركاه فلحقا

به وانطلق ثلاثتهم والأخبار من المارة لا تدعو للتفاؤل. وحين اقتربوا أكثر من القرية، قابلتهم بعض الأسر الهاربة وصراخهم يملأ السماء:

"إنهم قتلوهم، ذبحوهم، ما في إشي تركوه، ما في إشي ما نحرق، كل إشي انتهى".

تركوا العربة وترجلوا حتى يتكشفوا الوضع خفية، ورائحة الدماء تزكم أنوفهم، حتى إذا ما دخلوا القرية قليلًا وجدوا الجثث في كل مكان، جثث نساء وأطفال ورجال مُلقاة في الطرقات، بعضهم في صفوف منظمة دليلٌ على طريقة قتلهم. أسرعوا الخطى بحذر حتى وصلوا إلى بيت أهل أمنية، وكانت الفاجعة، جثة زوجة منير مشوهة ومحترقة، وجثث جميع أهلها أمامها في صفٍ منتظم، صرخ منير دون حذر من الفاجعة، فسمعه بعض الصهاينة فأتوا يستطلعون الأمر

متوقعين أن هناك ثمة شخصٍ قد أفاق بعدما تركوه مغشيًا عليه متوهمين أنه قُتل، ففاجأهم وجود رجال مسلحين، فبادرهم منير بالنار فأردى أحدهم قتيلًا في الحال قبل أن يحتمي الباقون ويحاولون الفرار، وصوت العربات الصهيونية يعلو وهم قادمون ليستطلعوا ماهية إطلاق النار الذي حدث.

و بالإجبار أخذ سامح وأمجد منير تحت غطاء من النار ليخرجوا من معركة غير متكافئة، وقبل أن يُطبق عليهم العدو ركبوا عربتهم وقادوها بعيدًا عن الخطر، ومنير يصرخ ويبكي صائحًا بهم:

خلوني أرجع، أنا عايز أموت هناك، عايز أقتل ولاد الكلب، قتلوا أمنية، قتلوها وحرقوها، الكلاب ولاد الخنازير.

كانت دموع أمجد تنهمر مع صراخ صاحبه وهول ما رأوه، لكن سامح كان يقود العربة في صمت وكأنه إنسانٌ ألِيّ صُمم خصيصًا لهذا الغرض.

ووسط بكائه احتضن أمجد رأس منير قائلا:

هناخد بتارها، والله دمها مش هيروح هدر، أمنية في الجنة يا منير، هي دي كانت أمنيتها وحققتها، تماسك عشان ناخد بتارها سوا.

ثم وجه حديثه لسامح:

قول حاجة يا سامح.

لم يرد عليه سامح أو يلتفت إليه واستمر في قيادته صامتا، فتجاهله أمجد وأكمل حديثه مع منير مُحاولًا التهوين عليه، لكن هيهات! فكيف تُهوِّن على رجلٍ فقد زوجته بتلك الطريقة البشعة!

وفي الطريق قابلتهم بعض الأسر المكلومة النازحة فتمهلوا ليحملوا معهم بعضهم، وكان نصيبهم في طفلٍ يمشي كالزاحف بجوار فتاة لا تقدر على حمل نفسها لتحمله، أركبوهما معهم وسمعوا منهم القصص.

الطفل عمره ١٢ سنة، حكى: "أنهم دخلوا عليهم الدار وفتشوهم، ثم أخذوهم للخارج مع آخرين وأوقفوهم صفًا، وأطلق صهيوني النار على أحد الرجال فقتله، فصاحت امرأته فصوبوا نيرانهم نحوها وقتلوها، ثم طلبوا من أخيه أن يتقدم خطوتين وقتلوه،

فصاحت أمه وهي تحمل أخته وارتكست عليه وهي تحمل أخته الرضيعة فقتلوهما معًا وهم فوق أخيه القتيل، ثم قتلوا كل الكبار، وتركوا الأولاد يبكون ويصرخون، فقالوا: إن لم تتوقفوا عن البكاء سنقتلكم، لكن أحدًا لم يتوقف عن البكاء، ففتحوا النار عليهم جميعًا وقتلوهم، أما هو فقد وقع على الأرض بينهم مغشيًا عليه ولم تصبه نار، وحين إفاقته كانت تلك الفتاة تمر فزعة فوجدته يبكي، فرجعت إليه وحملته معها في طريقها."

أما هي: ففتاة في أوائل العشرينات من عمرها تم إلقاء القبض عليها وعلى أخيها الصغير بعدما قتلوا كل أهلهما، كانت أعينهم تأكل جسدها من تحت ملابسها وهم مُمسكون بأخيها الطفل يلهون به كالدمية، وكان معها مبلغ كبير من المال، فعرضت عليهم أن يأخذوه ويتركوا أخاها فهو صغير جدًا، فأخذوا المال ثم قتلوا الصغير، وحينما سقطت عليه باكية، حدث صوت إطلاق نار من مُقاوم ما من أهل القرية فتركوها وجروا يختبئون ليتكشفوا الأمر، فانتهزت الفرصة وهربت.

ووسط الحكايات المؤلمة وصلوا لمكان تجمعهم ليسمعوا مزيدًا من الحكايات البشعة من الفارين من دير ياسين أو القرى المجاورة.

إمرأة قد استوى حملها في شهره التاسع، شقوا بطنها فحاولت بنتها أخذ الجنين فقتلوها وقتلوا من خرج من بطنها.

شيوخ عجائز عرفوا أن شيخوختهم لن تحميهم من القتل فارتدوا ملابس نساء لعل ذلك يكون سبيلا لنجاتهم، فلم يشفع لهم كل ذلك وقتلوهم.

يا الله، كم قُتل هؤلاء الناس بالرعب مئات المرات قبل أن يقتلهم الرصاص الآثم؟

وبعد هذه المجزرة ومن الرعب الذي أصاب الناس جرائها، هاجر سكان القرى المحيطة وتركوها، قرى المالحة وقالونيا وبيت إكسا.

وفي مساء اليوم التالي على المجزرة والجروح نازفة، والبكاء هو صوت الكون الزاعق والإنسانية تحتضر، شن الصهاينة هجومًا جديدًا على قرية القسطل بأسلحة ثقيلة وخفيفة بينما لم ينجد المجاهدون سلاحهم الذي قرب أن ينفذ في ظل شحٍ عربيٍ عليهم بالسلاح والذخيرة والمال، عار عليهم أولئك العرب.

إنزوى سامح بصديقيه على إثر ذلك، وكان أول مرة ينطق من بعد رجوعهم من أرض المجزرة:

نويت إني أستشهد.

رد أمجد عليه بتساؤل:

مفيش حد بينوي يموت، إحنا ناوينا إننا ننتصر.

هز سامح رأسه رافضًا:

نويت أستشهد، هخرج من هنا هحارب لحد ما أموت، ومش هرجع تاني غير شهيدًا.

نطق منير بصوت متحمس ممزوج باليأس:

خدني معاك، أنا معاك.

أشار سامح بالرفض:

لأ، أنا بقول ليكم عشان ما اختفيش فجأة، محدش هييجي معايا.

لم يكترث منير له وبدأ يُعد في بعض الأسلحة، فقطع أمجد الصمت قائلا بتحدٍ:

مادام هتخرج ونويت، يبقى كلنا مع بعض، مصيرنا واحد.

قاطعه سامح بعصبية قائلا:

لأ، محدش جاي معايا.

فأدار منير رأسه له قائلا بثبات:

هتمنعنا إزاي؟

مش همنعكم بالعافية، أنا قررت أن أستشهد مش عايزكم تاخدوا قرار بناءً على قراري.

أشار أمجد بيده أن كفى قائلا:

خلاص يا سامح، الكلام انتهى، مع بعض إن شاء الله، صحبة في النصر وفي الاستشهاد.

باستسلام هز سامح كتفيه دون أن يُعلق، وقبل الفجر رحلوا حاملين ما استطاعوا من أسلحة دون أن يُثقلهم حملها عن الكر والفر.

وكانت أول عملية قاموا بها في مستوطنة في غرب القدس بالقرب من دير ياسين، تسللوا لها ليلا، وخلف اثنين من الصهاينة المدججين بالسلاح تسللوا وذبحوهم بالسلاح الأبيض كالخراف، ثم أشعلوا النيران في عربتهم وثبتوا عجلة قيادتها وتركواها تسير وهي مشتعلة وسط المستوطنة لتثير الرعب في قلوب الجميع، بينما خرجوا هم بسلام كما دخلوا.

وفي اليوم التالي تربصوا في بعض الأحراش المجاورة لمستوطنة صهيونية أخرى، حتى وجدوا عربتين يقودها ستة رجال متجهة للمستوطنة، ففتحوا عليهم النار وأردوهم جميعًا قتلى، وحرقوا العربتين ورحلوا دون أن يصيبهم مكروه.

وفي مساء نفس اليوم تسللوا إلى مستوطنة أخرى وقتلوا ثلاثة صهاينة، وخلال سبعة أيام كان الرعب في هذه المستوطنات قد ملأ قلوب مغتصبي الأرض، بعد تناقل الأحاديث حول تلك العمليات البطولية.

كانت عمليات سامح وأمجد ومنير تغلب عليها الفدائية المشوبة بالتهور، يتقدمون لا يخشون إلا الله، فقد قدموا يحملون أكفانهم يطلبون الشهادة، فما الذي قد يُخيفهم بعد ذلك؟! وقبل انتهاء شهر إبريل أتاهم خبر سقوط حيفا وطبرية في أيدي الصهاينة، وأن الرعب مما حدث في دير ياسين قد ساعد بشكل كبير على هذا السقوط السريع، وإذاعات العصابات الصهيونية تهدد الفلسطينيين من أن مصيرهم سيكون مصير أهالي دير ياسين، والخوف من تكرار تلك المجزرة دفع البعض إلى الهروب بأطفالهم من الموت بعد التنكيل والتعذيب.

بل جاءهم خبر مقتل القيادي حسن سلامة بعدما قام بأعمال بطولية للدفاع عن مدينة يافا قبل أن يرتفع شهيدًا في معركة رأس العين. كان القادة الكبار يسقطون، والعرب يغطون في نوم عميق، وتصريحات رنانة واجتماعات في الأمم المتحدة لا تُسمن ولا تُغني من جوع، بينما الصهاينة صامتون يُخزنون الأسلحة وينظمون

الصفوف ويدربون كل فرد منهم على فنون القتال في الجيوش الحديثة التي تعلموها في صفوف الجيش البريطاني.

لكن خبر سقوط المدينتين لم يزدهم إلا إقدامًا وشجاعة وإصرارًا على المضي في طريقهم، كانوا قد قتلوا ما يزيد عن خمسين صهيونيًا في أيام قليلة وفي مستوطنات متعددة حول القدس وأريحا ورام الله واللد ويافا وقلقيلية وطولكرم وجنين ووصلوا إلى بيسان ثم الناصرة.

وصلوا إلى الناصرة يوم ١٣ مايو ١٩٤٨، وقبيل فجر اليوم التالي كانوا يقفزون أسوار مستوطنة ليقوموا بعملية فدائية جديدة بها حين لمحهم أحد الصهاينة. تحرك الأبطال وهم لا يعرفون أن ثم كمينًا يُعد لهم، لكن أمجد لمح أحدهم يختبئ بعدما نظر بطرف عينه من وراء بناية، فأشار إليهم أن يتوقفوا، وهمس لهم:

في كمين هنا، وراء البناية اللي هناك دي واحد بص علينا.

همس سامح:

متأكد؟

أه متأكد.

بسرعة شرح لهم سامح الخطة:

منير هتلف من ناحية الشمال بحذر حوالين المباني، أمجد هتلف من ناحية اليمين، وأنا هقف هنا أخرج أبص وأدخل وأناوشهم، لحد ما يزهقوا ويهاجموا وهم بيحسبونا لسه متجمعين هنا ومركزين عليَّ، فتضربوا أنتم من وراهم.

علق أمجد:

بس كده مهمتك خطر.

أشار سامح بحزم:

نفذ، مفيش وقت للجدال.

تحركا كما رسم لهما سامح، وسامح يلفت انتباه العيون له، وبعد عشر دقائق بدأ إطلاق النار عندما كان سامح متقدمًا بعض الشيء فأصابته رصاصة في كتفه، لكنه تراجع واختبأ وبدأ الرد بالمثل، ثم سمع أصوات النيران المساندة تأتي فعرف أن منير وأمجد قد دخلا المعركة، فتقدم بصدر عارٍ دون حذر يضرب النار ويقنص كل من تظهر منه طرفة عين، ويأخذ كل الانتباه من أمجد ومنير وكأنه كتيبة إعدام قد نزلت على الصهاينة. كانت جسارته تقتلهم رعبًا فيفرون وهو عاري الصدر لن تخطئه أي طلقة لشخص مبتدئ يستطيع أن يُطلقها في اتجاهه، ومن رعبهم توقعوا أنهم أخطأوا وأن الهجوم عليهم يأتي من كتيبة كاملة، وأمجد ومنير يصطادون الفارين فأسقطوا منهم الكثير.

كانت أعظم عملياتهم الفدائية، أعدوا لهم كمينًا فجعل الله في كمينهم نحرهم.

وفر من استطاع أن يفر وتحصنوا بداخل حصونهم طالبين العون من العصابات الصهيونية وانتظروا دعمهم. انضم منير وأمجد إلى سامح وبدؤوا في الانسحاب تحت وابل من النار يغطي انسحابهم، وقبل أن يخرجوا كما دخلوا سقط سامح.

فزع إليه أمجد ليساعده، بينما منير مازال يضرب النار بكثافة في كل مكان بشكل عشوائي، ليجد أمجد أن بجانب الطلقة التي أصابت كتف سامح هناك طلقة أخرى قد اخترقت بطنه، وقد تحامل على نفسه ليقتنص الفرصة معهم في قتل الصهاينة.

حاول أن يسنده على كتفه ويمشي بجانبه، لكنه لم يستطع، فطلب منهم أن يتركوه فورًا ويرحلوا، فرفضوا باستنكار، فأصر، فأصروا، وحملوه عبر السور وتحركوا بحذر وهو مستند عليهم، واختبأوا ليروا مرور عربات مسرعة تحمل الدعم للصهاينة، حتى إذا مروا تحركوا مرة ثانية ليصلوا إلى عربة تنتظرهم في مكان مظلم، وتحركوا بها مبتعدين، منير يقود، وسامح يرقد ورأسه على فخذ أمجد، وأمجد يحاول أن يمنع الدماء الغزيرة بأي طريقة من النزيف، وبيد واهنة أوقفه سامح قائلًا:

أنا بحتضر، سيبني أموت بهدوء.

بكى أمجد بشدة وهو يقول:

لأ مش هتموت دلوقتي، لسه في صهاينة كتير موجودين مستنيين سلاحك تقتلهم.

فكرر بصوت واهن:

سيبني أموت بهدوء.

ردت دموع أمجد وقد عرف أن صديقه بالفعل يحتضر، بينما منير يقود العربة كما فعل سامح من قبل دون أن ينطق أو يلتفت.

وصوت سامح يهمس بالشهادة، ويُكررها، ويُكررها، ثم خرجت روحه بسلام إلى بارئها.

استشهد سامح في يوم أُعلن فيه قيام دولة مزعومة للصهاينة أسموها دولة إسرائيل، في مساء ١٤ مايو ١٩٤٨، ذلك المساء الذي انتهى فيه الانتداب البريطاني على فلسطين رسميًا، بينما يُشيع منير وأمجد ومعهم بعض الفصائل الفلسطينية المقاومة جثمان شهيد جديد، يزفوه إلى السماء بعد بطولات عظيمة قام بها، بعدما حاول أن يأتي بحق أخيه الذي قتلوه، أو حق جده وجدته الذين ماتوا في غربتهم، أو حق أبيه الذي علقوه على المشانق، أو حق أمه التي ماتت كمدا على والده. استشهد وقد صدق ما عاهد الله عليه فخرج ولم يعد إلا شهيدًا.

كم من أبطال مثل سامح امتلأت بهم فلسطين، من أهلها ومن العرب، حاربوا ليحموا أراضيهم من خطط سايكس بيكو، ووعد بلفور، وخطط المحتلين الغرب والمنظمات الصهيونية الذين استباحوا الأرض والخلق دون وازع ضمير أو إحقاق أي نوع من العدل، وسط منظمات دولية خسيسة قامت مدعية العدل لكنها في الحقيقة لم تقم إلا لحماية مصالح الطغاة وتبرير أفعالهم وإعطائهم غطاءً من الشرعية، تلك الشرعية التي جعلت شريعة الغاب هي القانون الوحيد المعترف به.

كان أمجد يفكر في كل ذلك وهم يشيعون صاحبه، بينما السؤال: أين جيوش العرب؟ يُلح في رأسه، أين العرب لينقذوا بلادهم وأراضيهم المقدسة، الأرض التي عاش فيها المسيح وأقيمت بها

كنيسة القيامة، وأرض إسراء النبي والمسجد الأقصى؟ أين العرب؟.

ومساءً كان القتل في كل مكان مع إعلان دولة إسرائيل، لكن مع الألم يأتي الأمل. فقد وصلت الأخبار أن الجيوش العربية المُعدة لدخول فلسطين منذ ما يقرب الشهرين قد تحركت بالفعل بعد انتهاء الانتداب البريطاني.

فقد دخلت قوات خمس دول عربية إلى أرض فلسطين لتمنع قيام دولة الصهاينة المزعومة على أرضها الطاهرة: جيوش مصر والعراق والأردن وسوريا ولبنان، وانضم فصيل سعودي صغير للجيش المصري، فضلًا عن كتائب مجاهدة من جماعة الإخوان المسلمين من مصر وفلسطين والعراق وسوريا والأردن قد دخلت بالفعل وشاركوا في عمليات كثيرة، يبدو أن العرب قد تحركوا أخيرًا لنجدتهم.

وقبل أن يكمل أمجد ومنير ما بدأوه مع صديقهم الشهيد، نبههم بعض من رجال المقاومة الفلسطينية أن الجيوش العربية الآن في أتون الحرب، وستكون فائدة مساعدتهم أكبر من فائدة عملياتهم الفدائية التي يقومون بها. كانت حجتهم قوية، فقررا الرجوع والانضمام إلى المصريين المحاربين في الجنوب، وقد كان.

وفي طريق عودتهم قابلوا مصريًا آخر يُدعى "رأفت منصور"، كان قد فر من الإنجليز مع صديق مصري آخر يُدعى "كامل الشريف" بعدما قبضوا عليه هو ومجموعة من المقاومة. وانشغل بعد هربه بعمليات راحلة كما كانوا يفعلون هم، وكان ينتمي لجماعة الإخوان

المسلمين. فحكى لهم عما قاموا به من جولات وصولات في مدن مختلفة بأيدٍ مصرية وسورية وأردنية، وكيف أنه رأى بعينه القوات البريطانية وهي تقوم بتدريب عصابات الهاجاناه ليتركوهم لاحقًا يفرضون كلمتهم على الأرض.

وحكى كيف تم القبض عليه هو ومجموعة من المصريين والعرب وأهانوهم إهانات شديدة، لكنه استغل مرورهم في منطقة أحراش وهم ينقلونهم من سجن إلى سجن آخر فقفز من العربة وهرب وسط إطلاق كثيف من النيران، فر منه بسلام.

سأله سامح:

بعد ما الإنجليز مشوا والانتداب البريطاني انتهى، دا هيغير حاجة على الأرض؟

رد بتفاؤل شديد:

بالتأكيد، إحنا في الأساس بنحارب الإنجليز. هما حاطين الصهاينة في الصورة بس هما اللي بيحركوهم. دا غير إنهم قافلين علينا كل حاجة ومخوفين القيادات العربية الجبانة.

ثم التفت إلى أمجد ليسأله:

إنت عارف إيه اللي حصل في الثورة الفلسطينية؟

أشار أمجد بيده قائلًا:

أعرف القليل فقط.

تنهد رأفت وبدأ يحكي:

بعد قرارات الأمم المتحدة والدول الغربية أن فلسطين تحت الانتداب البريطاني، بدأت هجرة اليهود إليها. الفلسطينيون حسوا إن أرضهم بتتسرق منهم وبدأوا فعاليات على الأرض عشان يمنعوا دا، بس كل مرة كان يكسر الإنجليز شوكتهم بوعود وردية ما بيتنفذش منها حاجة. وفي يوم ١٩ نوفمبر ١٩٣٥ قتل الإنجليز الشيخ المجاهد عز الدين القسام.

التفت إلى أمجد مرة ثانية وسأله:

بالتأكيد تعرف عز الدين القسام؟

كان أمجد يعرف القليل عنه بالفعل فتحرج من أن يقول ذلك، فلحقه منير قائلًا:

عز الدين القسام هو مجاهد سوري في الأساس عاش في مصر سنوات وساعد الليبيين في حربهم ضد إيطاليا، وشارك في الثورة في سوريا ضد الاحتلال الفرنسي في عام ١٩٢٠، وحاولوا يشترونه ويكرموه بأنهم يمسكوه أمر القضاء، بس هو رفض. فحكم عليه الديوان السوري العرفي غيابيًا بالإعدام. وبعد ما أخفقت الثورة اللي سموها "ثورة جبل صهيون"، راح فلسطين، وأقام في حيفا، وبدأ في عام ١٩٢٩ يدعو للكفاح المسلح ضد اليهود.

وتم القبض عليه بعد ما أخرج مسدسًا من جيبه وهو في المسجد وقال جملة شهيرة: "من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليقتن مثل هذا". بس الناس تظاهروا عشان يطلعوه من السجن، وده اللي حصل فعلًا. كان بيجهز لثورة وكان بينتشر بين الناس كواعظ

ومأذون شرعي، وكان رافض إنهم يتعجلوا القيام بالثورة قبل ما يجهزوا كويس، وقدموا خلال ذلك عمليات بطولية ضد الصهاينة والإنجليز لحد ما اكتشفوا أمره وحاصروه هو ومجموعة معه بالأفراد والطائرات في معركة رفض أن يستسلم فيها وقتلوا فعلًا من الإنجليز ١٥ جنديًا، قبل أن يقتلوه بعد أن ترك مجموعات منظمة كانت نواة لثورة فلسطين الأعظم في التاريخ.

أثنى رأفت على شرحه مبتسمًا:

الله ينور، إنت مذاكر كويس أهو.

فرد منير بابتسامة باهتة سرعان ما اختفت من على شفتيه، ليكمل رأفت:

نرجع لموضوعنا. الثورة الفلسطينية قامت بإضراب شامل من كل الفلسطينيين لمدة ٦ شهور كاملة. الإضراب دا كان كافي إنه يوقع الاحتلال البريطاني ويطرده، لكن وجود الصهاينة كان مشكلة في المعادلة دي. بدأت الثورة في ٢٠ إبريل سنة ١٩٣٦، وكانت مطالبها باختصار: وقف تهجير اليهود لفلسطين، منع انتقال الأراضي العربية لليهود، وتشكيل حكومة وطنية مسئولة أمام المجلس النيابي. بس محدش سأل فيهم. فبعد بداية الإضراب بحاجات بسيطة، بدأت المقاومة المسلحة كمان، وحصلت عمليات بطولية زي معركة باب الواد، والهجوم على سينما أديسون في القدس، والهجوم على سيارة مفتش البوليس البريطاني. وكان المحور الأساسي في العمليات دي هم المجاهدون اللي تركهم عز الدين القسام، واللي ما ألقوا السلاح وكملوا مشواره من بعده.

والإنجليز تاني بوعودهم خلوا الأمراء العرب يتدخلوا، فأنهى الثوار الفلسطينيون إضرابهم، لكن بعد شوية اكتشفوا أن وعود الإنجليز كعادتها لا يتم تنفيذها، فبدأوا المرحلة الثانية من الثورة بعمليات فدائية كبيرة جدًا، وكان الرد الإنجليزي هو القمع الشديد، لكن الثورة كانت قوية. هاجموا مراكز الشرطة والمستوطنات اليهودية والبريطانية واسترجعوا قرى وأماكن فلسطينية كاملة وحرروها من الإنجليز، لكن كان الإنجليز يعرفون كيف يرجعون تاني وسط مجازر يقومون بها. وحاولوا يقبضوا على مفتي فلسطين لكنه تمكن من الهرب إلى لبنان وبعدها تولى القيادة السياسية بالتعاون مع القادة الميدانيين أمثال عارف عبد الرازق، وعبد الرحيم الحاج محمد البراقاوي، وعبد الفتاح الحسيني، وحسن سلامة، ومحمد صالح الحمد، وعبد القادر الحسيني.

حين ذكر اسم عبد القادر الحسيني، ابتلع منير ريقه بصوت مسموع وزفر بحسرة، ولم يعره رأفت انتباهًا وأكمل:

في أواخر عام ١٩٣٨ اضطر الإنجليز أن يتحركوا بكل جيوشهم لاحتلال فلسطين من جديد: مدرعات وطيران ومدفعية ومشاة. كانوا مش قادرين يفرقوا بين الثوار وغيرهم بعد ما قتل الثوار كل الجواسيس تقريبًا، فبقوا يقتلوا أي واحد لابس كوفية وكأنها علامة على ثوريته. فخلع الجميع الطرابيش ولبسوا الكوفيات الفلسطينية تضامنًا مع الثورة. كانوا شجعانًا جدًا، بس الإنجليز في حملتهم بقوا يقتلوا أي حد يشكوا فيه ولو لحظة إن ليه علاقة بالثورة. فلو لقوا في حوش بيتك فارغ رصاصة قتلوك.

وبعد دخولهم لكل قرى فلسطين أكثر من مرة كانت الثورة تعبت وسلاحها والمجاهدين تعبوا، لحد ما انتهت الثورة في نهاية سنة ١٩٣٩ بعد مجازر قام بها الإنجليز.

ثم نظر إليهم بفخر قائلًا:

أنا بعتبر إن الثورة دي أعظم ثورة في التاريخ، قام بها كل الشعب الفلسطيني ببسالة وإصرار نادر، بس كانت إثبات إن العدو الأساسي هما الإنجليز وهما اللي بيهيئوا الأرض لليهود. فخروج الإنجليز هيكشفلنا الدنيا ونقدر إننا ندخل متطوعين أكتر وسلاح أكتر، دا غير الجيوش العربية النظامية اللي اتحركت بعد انتهاء الانتداب البريطاني. العقبة الكبيرة قدامنا انتهت ومع إن العصابات الصهيونية اتدربت كويس ومعاهم سلاح كتير بس هنقدر نسحقهم زي الحشرات.

تفاؤلوا بحديثه وشعروا أن النصر قريب.

وفي غمرة كل تلك الأحداث نسي أمجد أمر ليلى وأمر الإسكندرية تمامًا، إلا أنه كلما تذكر الويلات التي حلَّت بأمنية تذكر ليلى التي تركها وحيدة لكنه سرعان ما كان يطرد تلك الفكرة ليركز في الحرب المشتعلة التي يخوضها.

وفي بئر سبع انضموا إلى مجموعات غير نظامية في حربهم ضد الصهاينة بانتظار تقدم الجيش المصري الذي يُحارب في النقب، وتوالت الأخبار اليومية السارة.

فالجيش المصري تقدم بخطوات ثابتة في الجنوب، والجيش الأردني يُكبِّد الصهاينة خسائر فادحة، وجيوش سوريا ولبنان والعراق تسترد بعض الأراضي العربية من هنا وهناك.

وانضموا هم لتشكيلات مساعدة للجيش المصري، وعرفوا خطته الرامية لاسترداد الأرض في نقاط ما بين رفح وقرية يبنا على بعد عشرين ميلًا من تل أبيب، في الوقت الذي تقترب الجيوش العربية الأخرى أيضًا من عاصمة الكيان الصهيوني المزعوم، وحينها يحتلون العاصمة ويُجبرون الصهاينة على الاستسلام.

ورأى رأفت منصور أنها خطة فاشلة وتناقشوا فيها:

لو احتل الجيش المصري بأعداده الصغيرة نسبيًا كل المسافة الشاسعة دي، هتتكون مجموعات صغيرة لتأمين مناطق كبيرة، ودا هيخلي الإنقضاض عليها وتصفيتها سهل.

رد أمجد بينما منير مشغول بتنظيف سلاحه:

بس لما الجيش المصري يمر على المستوطنات في الطريق أكيد هيطهرها، فمش هيكون في مجال إنهم يهجموا على النقاط الخلفية.

أشار رأفت برأسه نافيًا:

مستحيل، إنت شفت تأمينات المستعمرات دي عامل إزاي.

حقيقي، كل مستعمرة حصن حصين، الألغام اللي حواليها والأسوار العالية والأسلاك الشائكة والأبراج، مع إننا كنا بنخترقها كل يوم متسللين.

التسلل غير قوات كبيرة محتاجة تمهيد الأرض بالمدفعية وبعدها المشاة والمرور في أماكن كتير ملغمة... دا غير إن مفيش دبابات، فالحرب هتكون بالطريقة القديمة.

حقيقي، الموضوع مش سهل أبدًا.

وبكده هينتشر الجيش المصري على مساحات كبيرة، والمستعمرات دي موجودة زي الدمامل، ممكن تفتح في أي وقت.

تدخل منير قائلًا:

المستعمرات دي أشرف على بنائها الإنجليز عشان الهدف دا، وعشان يكون ليهم نقاط استراتيجية في كل فلسطين. إنتم عارفين إن الخطة عملها الروس مع جيوش الألمان؟ سابوهم يتقدموا في مساحات واسعة جدًا وبعدها بدأوا يهاجموهم وهما مشتتين وبدأوا يتغلبوا عليهم لحد ما انتصروا.

علق أمجد بجزع:

طيب لازم الكلام دا يوصل للجيش المصري، وبسرعة.

وافقه رأفت قائلًا:

أنا أخبرت أحد قادة الجيش المتطوع وهو بدوره هيناقش الأمر مع قيادات الجيش المصري في الميدان النهاردة ونعرف الخبر.

وفي المساء أتى الخبر... تحدث رأفت والحنق يملأه:

بيأكدوا إن اللواء المواوي قائد الحملة عارف الخطر دا، لكن الساسة بتوع القاهرة عاوزين تقدم سريـع، غالبًا عشان يتباهوا بيه

قدام الشعب، والمواوي مفيش في إيده غير إنه يُطيع الأوامر، اتقدم.. فيتقدم.

أطرق منير برأسه قائلًا بصوت خفيض:

كلهم كلاب، ما يفرقش معاهم مين يتقتل وما تفرقش معاهم ولا مصر ولا فلسطين، يفرق معاهم بس إنهم يحافظوا على كراسيهم وخزائنهم، متربيين على حجر الإنجليز، هيبقوا إيه غير كده؟ كلاب، لو بإيدي كنت حاربتهم زي ما بحارب الصهاينة والإنجليز، كلاب الحكام والساسة العرب.

رد أمجد موافقًا:

عندك حق، لكن الوضع دلوقتي على الأرض مفيش غيرنا، لازم نحاول نسد المشاكل اللي بيقدمها لنا الساسة العرب، لازم نحمي ضهر الجيش المصري لو احتاج لنا.

فالتقط رأفت خيط الحديث:

هو دا اللي بيحصل بالفعل، لما بنهجم كل يوم زي ما بنعمل على المستعمرات الصهيونية بنشغلهم بالدفاع عن نفسهم فما بيكونش عندهم الجهد ولا الوقت إنهم يهاجموا النقاط اللي تركها الجيش المصري.

وأثبتت الأيام صحة حديثهم، فقد حاول الجيش المصري دخول مستعمرة نيريم في ١٦ مايو بعد دكها بالمدفعية لكنه وجد مقاومة شديدة مدعومة بتحصينات عسكرية كبيرة مما جعله يصرف النظر عن اقتحام المستعمرة، لكنه في ١٩ مايو وفي معركة بطولية رائعة أصر على اقتحام مستعمرة دير سنيد المحصنة تحصينًا

شديدًا، وقد نجح في ذلك بروح قتالية مرتفعة رغم مقاومة العدو الشديدة. وكان أمجد شاهدًا على تلك المعركة حيث أنه كان قد تسلل إلى تلك المستعمرة من قبل مع منير وسامح، فاستعانوا به في دخول المشاة ليخبرهم بما لديه من معلومات.

في ذلك اليوم وبعد أن دكوا المستعمرة بالمدفعية الثقيلة، شاهد كيف تقدم الجنود بصدور عارية في لحظة مفاجئة، فنقلوا المعركة إلى داخل المستعمرة، وتنقلوا يطهرونها بيتًا بيتًا، حتى اضطر العدو أن يُجلي المستعمرة تاركًا خلفه عشرات القتلى الصهاينة والكثير من العتاد والمؤن.

وهاجم بعدها الجيش مستعمرات "كفار ديروم" و"بيرون إسحاق" و"كوكبة" و"نجيا" قبل أن يستولي على مستعمرة "نيتسانيم" الكبيرة في معركة لا تقل بطولة عن معركة "دير سنيد".

كانت عمليات بطولية كبيرة يقوم بها الجيش المصري وتساعده فيها القوات غير النظامية، والأخبار تأتي من الغرب والشمال مبشرة، فالجيش الأردني كان مُعدًا إعدادًا جيدًا، قد يكون الأفضل بين الجيوش العربية، وقد كبَّد العدو خسائر فادحة، فحافظوا على القدس والقطاع الغربي كاملًا، وقتلوا من الصهاينة أعدادًا كبيرة.

وفي جنين تقدم الجيش العراقي فحررها كاملة وطرد كل الصهاينة من محيطها، وتقدم الجيش اللبناني والسوري طبقًا لإمكانياتهما والإرادة السياسية لساستهما وطبيعة تكوين الشعوب على الأرض، فحررا بعض المدن المتاخمة لحدودهما.

لكن ما لبث مجلس الأمن إلا أن قرر التدخل لحماية دولته الوليدة، فأصدر قرارًا بوقف إطلاق النار في ٢٢ مايو لمدة ٣٦ ساعة، وكان هذا الطلب مسار سخرية الجيوش العربية المنتصرة، وبالفعل رفضه العرب، لكن مجلس الأمن مارس ضغوطًا على الحكومات العربية التي رضخت له في النهاية تحت ضغوط أشد من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، بعد أن تقدم الوفد البريطاني بطلب في مجلس الأمن لمدة ٤ أسابيع، وأبلغت الحكومات العربية مجلس الأمن موافقتها على تلك الهدنة في يوم ٢ يونيو، وأصبحت الهدنة سارية مع مغيب شمس يوم ١٠ يونيو، وسط حنق الجيش المصري وقوات المقاومة غير النظامية.

وفي ظل تلك الحروب التقى منير وأمجد بأصدقائهم القدامى، ورجعوا مرة ثانية لعملياتهم المشتركة، فانضموا إلى جيش الإنقاذ الفلسطيني وقاموا بعمليات بطولية غير ملتزمين بالهدنة التي التزمت بها الجيوش النظامية، تلك الهدنة التي مد الغرب فيها العصابات الصهيونية بكميات هائلة من الأسلحة الحديثة، واستغلها الصهاينة لإعادة ترتيب صفوفهم ونشر الأسلحة وإعداد الخطط.

وبعد انتهاء تلك الهدنة، بدأت المعارك من جديد، لكن هذه المرة مالت الكفة لصالح الصهاينة. كان الحكام العرب يعملون ضد جيوشهم بالتأكيد.

يحكي أمجد أنه في هذه الفترة ذاع اسم قائد مصري يُدعى "أحمد عبد العزيز"، الذي قاد معركة بطولية لتحرير مستعمرة "رمات

راحيل" في ٢٤ مايو قبل الهدنة، ومعه عدد من أفراد الجيش والمتطوعين، وبعد أن دحروا العدو وتحصن الباقي منهم في آخر بيتٍ في المستعمرة، فانفض معظم المتطوعين وبعض الجنود إلى جلب الغنائم وإرسالها للخلف، رغم نداءات أحمد عبد العزيز المتكررة لهم بأن النصر لم يتم بعد. وكما حدث في غزوة أحد من قبل، ثبت أحمد عبد العزيز وزمرة صغيرة معه، بينما أتت التعزيزات للصهاينة المتحصنين فانقلبت الطاولة، وخسر المنتصرون معركتهم بسبب سعيهم لأخذ الغنائم قبل نهاية المعركة.

وتحت وطأة تقدم صهيوني على معظم الجبهات تم عقد هدنة ثانية، كانت بمثابة الانتصار للكيان الصهيوني، ورفعت الجيوش العربية الرايات البيضاء، بينما أعطت لهم العصابات الصهيونية ظهرها واندفعوا في الجنوب محاولين إلحاق الهزيمة الكاملة بالجيش المصري.

فُرضت تلك الهدنة بطريقة جزئية تحت تهديد مجلس الأمن في يوم ٢١ يوليو ١٩٤٨، لكن بعض المعارك لم تنتهِ في المنطقة الجنوبية بين الجيش المصري والقوات غير النظامية من ناحية، والجيش الصهيوني من ناحية أخرى.

فدارت معارك يومية يسعى بها الصهاينة للاستيلاء على المناطق التي يتحصن بها الجيش المصري. وفي هذا الوقت تزامل أمجد ومنير مع ضابط مصري يُدعى سيد طه، وهو برتبة لواء، أسمر البشرة من مدينة أسوان الجنوبية، وشهدا في هذه الفترة بطولات

نادرة قام بها هذا البطل الذي ضمهم لما وجد فيهم من المهارة القتالية والانضباط التام.

كان اللواء سيد طه قائدًا لكتيبة مرابطة في عراق المنشية، وتحت قيادته كتيبتان في الفلوجة على بعد ما يقرب من ثلاثة كيلومترات، وكانت الحرب مشتعلة بينه وبين أقوى العصابات الصهيونية، لكن سيد طه كان مثالا للاستبسال الذي صدَّره لجنوده، فكانوا مثله في الاستبسال.

وفي أثناء المعركة أتى خبر حزين باستشهاد البطل أحمد عبد العزيز بنيران صديقة. كان في طريقه لقيادة القوات المصرية في المجدل، وبصحبته اليوزباشي صلاح سالم، وعندما اقترب من الفلوجة اشتبه فيهم أحد الجنود المصريين فأطلق النار عليهم، فأصابته رصاصة في صدره استشهد على إثرها.

مات البطل الذي أذاق الصهاينة الجحيم بحنكته القتالية وخططه البارعة وبسالته النادرة، قبل أن يُذيقهم الجحيم بنيران رشاشاته، وبيت لحم شاهدة على بطولات ذلك البطل الذي روى بدمائه الطاهرة مع آلاف العرب والفلسطينيين أرض فلسطين الغالية لتكون شاهدة بدمائهم على عربيتها للأبد.

كان الخبر حزينًا على الجميع، لكن اللواء سيد طه أخرج الجميع من هذا الحزن بخطبة حماسية ألهبت قلوبهم، ورفعت من معنوياتهم، وكان من ضمن ما قاله في تلك الليلة:

"إن كان أحمد عبد العزيز قد رحل، ففي كل صخرة في أرض فلسطين أحمد عبد العزيز آخر ينتظر الصهاينة لكي يُذيقهم

الويلات. في صدر كل منكم بطل مثله، فكونوا على دربه، إما النصر التام أو الاستشهاد."

وبعد أيام أرسلت العصابات الصهيونية طلبًا للتفاوض، فجاوبهم اللواء سيد طه لطلبهم، لكنه لم يُوقف النار رغم ذلك يومًا واحدًا، وبالمفاوضات قرر الطرفان أن تنتهي الحرب في هذه المنطقة، وأن عراق المنشية نقطة آمنة تحت القيادة المصرية، ووافق سيد طه، وكانت هذه الموافقة مسار استنكار أمجد.

فاستأذن ودخل على اللواء سيد طه وأبلغه والضيق يظهر على وجهه:

سيدي اللواء، اليهود عمرهم ما كانوا أصحاب عهد، إزاي نآمن لهم؟

ابتسم سيد طه من كلام أمجد غير المؤهل بطريقة كافية للانضباط العسكري، ورد:

مين قالك إني ممكن أديهم الأمان؟

بالمعاهدة دي خدوا الأمان خلاص.

لأ، دا إحنا كمان هننسحب النهارده عشان نروح الفالوجة نساعد الكتيبتين هناك في صد الهجوم الصهيوني عليهم.

فنظر أمجد بكل دهشة واستنكار قبل أن يتنهد ويقول:

تاني يوم هيدخلوا عراق المنشية، تاني يوم على طول.

ابتسم سيد طه في مكر:

عارف، أول ما هنتحرك هيدخلوا.

بدأ أمجد يُفكر أن بالتأكيد اللواء عنده خطة ما، فقال مستفهما:
كمين؟
ضحك سيد طه بملامحه السمراء الجميلة قبل أن يقول بقوة شديدة:
إن شاء الله بكره هنحصدهم حصد.
تهللت أسارير وجه أمجد وقال بصوت مرتفع:
الله أكبر.
فأشار عليه سيد طه أن صه، وأخبره ألا يُخبر أحدًا الآن بالخبر.
وفي المساء أعدوا القوات للرحيل وبدأوا التحرك في اتجاه الفالوجة، لكن باقي القوات كانوا متحصنين في عراق المنشية في كمين محكم.
وعندما وجدت العصابات الصهيونية القوات المصرية ترحل، دخلت بسلاحها دون أن تتذكر الوعد والعهد الذي قطعوه بالأمس القريب، لكنها فوجئت بالنيران تُفتح عليها من كل جانب، وفي هذا اليوم تم قتل الكثير من القوات الصهيونية في هذه المعركة، وكانت هزيمة منكرة.
وجاءت التهنئة من قيادة الجيش للسيد طه على تلك العملية العظيمة، وأخبروه بين السطور أن الصهاينة قد أطلقوا عليه لقب الضبع الأسود، وعلق أمجد قائلًا:
الضبع الأسود هيخلّي ليلكم إسود إن شاء الله.

وضحك السيد طه على تعليق أمجد، وأصبح معروفًا بين الجنود بذلك اللقب، لكن كان هناك لقب آخر ينتظره في الفالوجة، ففي أكتوبر ١٩٤٨ تحرك السيد طه بلواء الجيش الذي تحت قيادته ليُقاوم محاولات الصهاينة دخول الفالوجة، والبطولات التي خاضوها في تلك المعارك لم تكن أقل ضراوة واستبسالًا من المعارك التي خاضوها في معركة عراق المنشية العظيمة.

وفي نهاية أكتوبر كانت القوات الصهيونية قد ضربت حصارًا خانقًا على لواء الجيش المصري في الفالوجة.

لم يكن أمجد ومنير قد انضما مع السيد طه حين انتقاله من عراق المنشية للفالوجة، وفضلا أن يرجعا إلى القوات غير النظامية، فطريقة حربها مناسبة لهم أكثر، وقد كان.

وحينما اشتد الحصار الصهيوني على الفالوجة، كونت القوات غير النظامية جبهات لمحاولة كسر الحصار على الفالوجة، وكانت تلك القوات من تشكيلات فلسطينية وعربية مشتركة من المقاومين، وكان الوضع مأساويًا. كان منير يشرح لأمجد ما عرفه من بعض القيادات الميدانية وهو يضرب كفًا بكف:

أول ما الصهاينة بدأوا هجومهم في بداية أكتوبر، جت الأوامر للقوات المصرية بالانسحاب من المجدل وأسدود، وإنهم يتجمعوا في غزة.

مع إن لو استعانوا بينا أو بعثوا لهم بعض المدد كانوا قدروا يحافظوا على وجودهم فيها.

أشار منير برأسه بالإيجاب:

ولو حتى ما استعانوش بينا، مكنش الجيش الصهيوني هيقدر يدخل، قوات جيشنا كانت متحكمة في الأمور كويس.

إمال إيه اللي حصل؟ ليه الأوامر جت كده؟!

معرفش، هتجنن، واللي يجنن أكتر إنهم سابوا قوات الجيش في الفالوجة بدون انسحاب عشان يتحاصروا كده، ومحدش يعرف المواوي هو اللي ما أصدرش أوامره ولا سيد طه اللي اتأخر في الاستجابة.

دافع أمجد عن سيد طه بثقة:

مستحيل يكون سيد طه اتأخر، سيد طه ما بيتأخرش.

معرفش لكن في حاجة غلط، الجيش دلوقتي مكشوف ولو هجم عليه الصهاينة دلوقتي هتبقى مشكلة، وجنودنا المحاصرين في الفالوجة مش هنقدر نعملهم حاجة بمحاولاتنا اليومية دي، دا كأن الصهاينة كلهم اتجمعوا حوالين الفالوجة، كأن كل الكلاب واقفة حوالين الفالوجة.

ربنا يستر.

في هذه الليلة نام أمجد والإحباط يشله، وفي الأيام التالية كان لا يوجد إطلاق نار إلا من المحاصرين في الفالوجة بالإضافة إلى القوات غير النظامية وباقي الجيوش صامتة.

وتقدم الصهاينة إثر هذا الخلل غير المبرر في الجيش المصري ليحتلوا بئر سبع وتجمعوا في مستعمرات النقب وانهار القطاع

الجنوبي ووقعت كل من عسلوج والعوجا، ثم اقتحمت القوات الصهيونية الحدود الشرقية المصرية ووصلوا حتى مشارف العريش.

بينما باقي الصهاينة كانوا يهاجمون الفالوجة جوا وبرا معتقدين أنهم سيتمكنون من إبادتهم، لكن الجيش المحاصر بقيادة سيد طه وبمعاونة تلك المجموعات الصغيرة المعاونة لهم من خارج الحصار تمكن من المقاومة باستبسال لا يوجد لمثله نظير.

وفي هذه الأثناء انضم لهم بعض المجاهدين الليبيين الذين خاضوا معركة بئر سبع قبل تسليمها، وحكى لهم كيف أن قوات الجيش المصري استنجدت بالقيادات لتأتي لهم بالدعم والصهاينة يُلقون عليهم مئات الأطنان من المتفجرات جوا حتى إذا أصابهم الإنهاك تمامًا هاجموها برا في هجوم شامل، فاضطروا لتسليم المدينة يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ في ظل عدم رد قيادات الجيش عليهم أو دعمهم بأي طريقة، تركوهم لقدرهم، ولم يكن القدر رحيما بهم.

وفي هذا اليوم استقر في يقين أمجد أن قيادات مصر خائنة، خانت القضية هي وكبار القادة في الجيش، وخانت كل جندي مصري استأمنها على روحه وهو يخوض تلك المعركة.

لكن منير اعتبر ذلك مبالغة، فالأمر لا يعدو إلا كونه قلة خبرة وعدم دراية وسوء تخطيط من قيادات الجيش، ربما الخيانة تكن عند الساسة فقط، لكن أمجد لم يقتنع.

وأصبح الأمر خطيرًا تحت تلك القيادة الفاسدة، فغزة وما بقى من الجيش المصري يستطيع الصهاينة محاصرتها بسهولة بعدما

دخلوا سيناء، وستكون كارثة كما هو الحال في الفالوجة، كانت القيادة تأخذ الجيش المصري إلى التهلكة!

في هذه الأثناء دارت مناقشات كبيرة في صفوف القوات غير النظامية عن كيفية دعم الجيش المصري في غزة حتى لا يتم محاصرته، وقد كانت الخبرة الميدانية قد ارتفعت عندهم، فقرروا تقديم خطة للجيش المصري الذي وافق عليها بدوره، وهي تتلخص في احتلال القوات غير النظامية لنقاط هامة بجوار المستعمرات الصهيونية المتاخمة حتى لا يُعطوا لهم الفرصة أن يهاجموا الجيش المصري قبل أن يرتب صفوفه الدفاعية، وقد كان.

وانتشت الكمائن على الطرق بين المستعمرات حتى أنه لا تجرؤ سيارة على الانتقال من مستعمرة إلى أخرى، وكانت فترة النضج عند أمجد فكان بطلًا في تلك المعارك، وفي أسبوع واحد تم تدمير ١٥ عربة مصفحة ودبابة وقتل الكثير من الصهاينة، فاضطر الصهاينة إلى محاولة مواجهة تلك الكتائب الجهادية المقاومة وجهًا لوجه، لكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا، وضج الصهاينة واشتكوا لمجلس الأمن وهددوا باستئناف القتال والهجوم على الجيش المصري في غزة، لكنهم في الحقيقة لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك على الأرض.

وطلب منير أن يخرج بسرية صغيرة ليكوّنوا كمائن في العمق عند وادي الشلالة وتل جمعة والرابية والشعوث، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة لبعد تلك المناطق، لكن السرية تحركت وفيها منير

وأمجد، وكان الأمر مفاجئًا للعدو الذي لم يتوقع مثل ذلك الإقدام، فكانت الانتصارات تتوالي وخسائر الصهاينة فادحة.

وفي إحدى الليالي جلس منير في الأحراش بجوار أمجد وقد أسند رأسه على جزع شجرة، فنام لبرهة من الزمن ثم أفاق مُتهللًا الوجه، فتعجب أمجد وسأله مستفهمًا فأجابه:

شفت أمنية.

حلمت؟

شفتها قاعدة على صخرة وسط جنة كبيرة ورجليها في مياه نهر، وشايلة رشاشًا في يدها ولفة الكوفية الفلسطينية على رقبتها بالطريقة التي كانت بتعملها دايمًا، ولما شافتني ابتسمت ليَّ أوي، وقالت لي (وحشتني يا بن العم).. فرحت لها وحضنتها، فحضنتني، وفكت الكوفية من على رقبتها ولفتها حوالين رقبتي، وادتني سلاحها، فخدته وصحيت من النوم.

انقبض قلب أمجد لكنه علق:

حلم جميل، أمنية في أعلى عليين في الجنة.

ابتسم منير ولم يُعلق، لكن قلب أمجد انقبض أكثر من ابتسامته.

وفي اليوم التالي أقاموا كمينًا لسيارتين مصفحتين وهجموا عليهما ونكلوا بهما أشد تنكيل، وفي أثناء ذلك برزت طائرة فجأة لم يسمعوا صوتها من ارتفاع صوت النيران واحتراق السيارات، وكان منير واقفًا بصدرٍ عارٍ في مواجهة الطائرة دون فرصة للاختباء منها، فقرر وصوب نيران رشاشه نحوها فأصابها، لكنه في نفس الوقت

استقبل رصاصة استقرت في صدره، قبل أن تفر الطائرة محاولة الهرب بإصابتها.

جاء أمجد نحو منير، ومنير جالس على ركبتيه وعيناه للسماء، والابتسامة تملأ وجهه بطريقة لم يرها أمجد على وجه صديقه مُطلقًا، جلس أمجد على ركبتيه أمامه واحتضنه بشدة وهو يعرف أن تلك الضربة قاتلة، ودماء منير تفور من جسده الطاهر لتغطي أمجد بلونها الأحمر ورائحتها الذكية، ومنير لا يلتفت إلا إلى السماء ثم يمد يده مناديًا بسعادة: "أمنية.. أمنية".

بكى أمجد وانتحب، حتى سقطت يد منير على كتفه وتهاوى جسده بين أحضانه وهو يمسكه كمن يمسك آخر أمل له في الحياة.

ذهب منير إلى حبيبته وزوجته شهيدًا، ليجلس معها فوق الصخرة على ضفة ذلك النهر يستقبلان الشهداء الذين يُزفون إلى السماء كل يوم، ذهب وترك أمجد الذي ترك جثمانه الطاهر وحمل رشاشه وركض في الاتجاه الذي رحلت إليه الطائرة وسط مناداة أفراد السرية له أن يرجع، فما يفعله جنون وانتحار، لكنه لم يأبه لهم.

كان يعرف أن إصابة الطائرة بالغة وأن أفرادها سيضطرون للقفز منها، وقد كان بالفعل، وعندما وصلت أقدامهم إلى الأرض وجدوا رشاش أمجد ليحصدهم حصادًا، وعاد ودموعه لا تتوقف وهو يُفكر، ليس له في هذه الدنيا من بعد رحيل أصدقائه أحد، ثم تذكر ليلى، صدمته الفكرة، صدمه أنه نسيها، كأنه لا يعرفها، ليلى؟

رجع وهو مشتت الذهن بين الحزن والولع، وعندما وصل إلى سريته أصابه الخرس وتوقفت دموعه ودفنوا صديقهم وهو لا يتحدث مع أحد.

وفي أوائل سنة ١٩٤٩ خرجت القوات الباسلة من الفالوجا ثم استقر الوضع بعد ذلك في غزة للجيش المصري، وبدأت القوات غير النظامية في العودة كل إلى دياره.

وكان أمجد وحيدًا أشد الوحدة وهو عائد بدون أصدقائه وظهره مثقل بالهزيمة، لكنه قابل حسن، صديقهم القديم، ففرح به كثيرًا، وحكى حسن لأمجد بطولة عظيمة لليوزباشي عبد العزيز السياجي قد شهدها بعينه وقت الانسحاب من الفالوجا، حيث فتح نيرانه بكثافة لتغطية الانسحاب مُعطيًا انطباعًا أن الجيش قد أتاه المدد، وبعد خروج الجميع فُوجئ الصهاينة أنه مجرد فرد فقتلوه، مات شهيدًا بعدما انسحب الجيش المصري بسلام من الفالوجا بعد تلك المعاهدة التي عقدوها، لكنهم لو تمكنوا من الجيش المصري لأفنوه بغض النظر عن كل ذلك الحديث عن المعاهدات.

كان حديث حسن مسليًا لأمجد، الذي التزم السكوت معظم الوقت واكتفى بسماع حديث حسن الذي لا ينتهي.

وانضم إليهم في مفاجأة سارة أخرى رأفت منصور، وكان عنده حكايات أخرى، فقد حُلت جماعة الإخوان المسلمون في مصر في ديسمبر ١٩٤٨، وطلبوا من الإخوان الانسحاب من مواقعهم رغم كفاءتهم أثناء مشاركتهم في الحرب جنبًا إلى جنب مع القوات غير النظامية الأخرى أثناء انسحاب الجيش.

لم يُقاطعه أمجد ليخبره أنه كان فردًا من تلك القوات التي تغلغلت في العمق بشجاعة، وتركه يُنهي حديثه وحسن يسمعه، ويبث من فينة وأخرى على القيادات الفاشلة التي تسببت في فشل كل شيء.

ثم حكى عن تلك المعركة العظيمة في دير البلح عندما احتل الصهاينة التبة ٨٦، فهاجمهم الجيش المصري بضراوة لأهمية هذا المكان الذي لو سقط لفتح للصهاينة طريقًا لشق قطاع غزة نصفين. واستعان الجيش بالقوات غير النظامية، وبلاء الجميع بلاءً بطوليًا ليس له مثيل، يحكي بعضه رأفت، ويذكر بالإسم أحد أفراد الإخوان المسلمين يُدعى السيد محمد منصور، ويُقسم أنه استشهد على يده. لكنه بعدما أصيب، وتجمع حوله بعض الجنود، نهرهم وطلب منهم أن يتركوه ويهتموا بقتال العدو، ثم أغشى عليه فحمله رأفت للصفوف الخلفية. وعندما وصل، أفاق، فكان سؤاله الأول عن أخبار المعركة. فأخبره أنهم يبلون بلاءً حسنًا، فارتاح وسلم روحه لبارئها وهو مستبشرٌ بنصر في هذه المعركة. وقد أتى النصر كما يحكيه رأفت عظيمًا، وقتلوا ببسالة أعدادًا كبيرة من الصهاينة الذين كانوا يقفزون عليهم وسط الدشم ليهاجموهم بالأسلحة البيضاء والخفيفة بعدما أحالوا التبة كلها لدخان بضربات مدافعهم التي لا تنتهي. ففر الصهاينة في النهاية مذعورين، وقد تركوا من الأسلحة الكثير، وتم قتل قائدهم الصهيوني الروسي.

عرف أمجد الكثير مما فاته في المعارك التي لم يشهدها. وحينما وطأت أقدامهم مصر، استقبلوهم بما لم يكن في الحسبان، فألقوا القبض عليهم وألقوهم في السجون الحربية المصرية.

وكان الألم النفسي في صدر أمجد أقوى من أي شيء، فها هم من يعتبروهم خونة قرروا أن يُثبتوا خيانتهم بإلقاء القبض عليهم.

أدخلوهم في زنزانة ضيقة، كانوا أربعة: أمجد، حسن، رأفت، ومعهم أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين، وقد حلوا ضيوفًا على سجينٍ قد طال شعره ولحيته وكأنه من أهل الكهف. وكأنهم قد نسوا أمره في الخارج فتركوه في زنزانته وحيدًا بلا طعام أو ماء حتى برزت ضلوع جسده وأصبح مُجرد بعض جلد رقيق على العظام، وكأنه خرج توًا من مجاعة قاسية.

انشغل أمجد بمحاولة استكشاف ذلك الكائن في ظلامٍ لم يسمح له بفعل ذلك كما يجب، لكن لسان رأفت لم يتوقف. أخبرهم أنهم سيفرجون عن أمجد وحسن قريبًا، وسيتركونهم لأنهم لا يقصدون إلا الإخوان المسلمين. فاستفسر حسن منه عن السبب، فأخبره:

الإخوان المسلمون نسقوا مع الجيش أثناء الحرب، لكنهم رفضوا الانصهار فيه، وحكومة النقراشي والملك خايفين من تنامي قوة الإخوان العسكرية.

عندهم حق، ما كان لازم الإخوان ينصهروا في الجيش عشان تبقى قوة واحدة. ماينفعش يبقى بلد فيها جيشين.

عندك حق، بس الوضع على الأرض مختلف. كل العقيدة اللي تربينا عليها كانت هتروح في ثانية هدر. إحنا ما عندناش فرق بين قائد وجندي، الأكل واحد، والدخل واحد، والإعاشة واحدة، الفرق بينهم هو السمع والطاعة بس، وممكن يبقى الجندي خريج جامعة والقائد فلاح يدوب بيفك الخط. الموضوع هو إيه خبراته

القتالية. بس الجيش مش كده. الجيش القائد حاجة والجندي حاجة تانية خالص. الأفكار التقليدية للجيوش ملهاش علاقة تمامًا بأفكار الإخوان.

وحل جماعة الإخوان؟

بص، مادام الإنجليز محتلين البلد، مستحيل القيادة السياسية تسيب الإخوان يشتغلوا. إحنا كنا متوقعين قرار الحل في أي وقت.

بيني وبينك، إنتم يتخاف منكم. لو قررتم توجهوا سلاحكم للداخل هتبقى مشكلة. مفيش دولة يستقيم حالها كده.

فرفع رأفت يديه مؤديًا حركة كأنه مارد مُخيف وهو يقول بصوت مُضحك:

عووو، إحنا المرعبين.

ضحك حسن وضحك رفيقهم، بينما أمجد مشغول بذلك الذي حلوا عليه ضيوفًا. وفي صباح اليوم التالي فُتحت باب الزنزانة ونادوا عليهم فردًا فردًا، وكان أمجد أولهم. وتحت نور شعاع ضوء صغير أتى من باب الزنزانة، لمح أمجد وجه الرجل عندما التفت لينظر إلى الباب، ووقع أمر ما في قلب أمجد. فهذا الوجه يألفه. لا يعرف أين رآه لكنه يألفه.

قدموه إلى تحقيقات طويلة، وسألوه أسئلة كثيرة، وكانت في أغلبها منصبة على علاقته بجماعة الإخوان المسلمين. وفي منتصف التحقيقات صرخ أمجد: "سامح!"، فاستعجبوا لأمره وحسبوا أنه قد أصابه نوعٌ من أنواع الجنون أو مسه جنيٌ، وحينما تأكدوا أن لا علاقة له بالإخوان المسلمين، عادوا به إلى زنزانته. وقد تذكر أمجد

لماذا يألف وجه ذلك الكائن القابع في زنزانته من قبل ألف عامٍ على الأرجح. فملامحه الضائعة كانت تُشبه إلى حد كبير ملامح سامح، صديقه الشهيد.

كانوا قد حاولوا الحديث معه لكنه لم يستجب، وحينما رجع أمجد قبع ساكنًا يراقبه، حتى إذا ما تعب الرجل من جلسته تمدد ونام. وعندما علت أنفاسه بصوتٍ رتيب، تحركت إحدى قدميه المفرودتين لتعتلي الأخرى، فضحك أمجد بشدة، وأيقظ الرجل الذي قام فزعا، فاحتضنه أمجد وهو يدفعه عنه بتعجب وفزع، فنظر له أمجد قائلًا:

أنا صديق سامح يا محمود.

توقف الزمن لبرهة، والرجل صامت كالقبر، وبعض ملامح الإنسانية تعود إلى وجهه، فأكمل أمجد مُشجعا له:

سامح أخوك يا محمود. أنا صديقه.

وببطء نطق الرجل بلسانٍ لم يتحرك بهدف الكلام منذ زمن قائلًا:

سامح؟

بكى أمجد بشدة مرة ثانية، لا يعرف أيبكي فرحًا أم حزنًا أم يبكي بلا سبب، غير آبه بالثلاثي القابع خلفه ينظرون له نظرة بلهاء وهم لا يفهمون شيئًا. والرجل هذه المرة تركه يعانقه دون أن يدفعه عنه قائلا:

سامح؟

ثم كررها مرات عدة قبل أن تنزل دمعة يبدو أنها حُبست سنين لتبلل كتف أمجد.

حكى لهم أمجد، والرجل يسمع مشدوهًا عن محمود، ذلك الأخ الذي فقده سامح منذ زمن، وحسبه الجميع ميتًا. وحكى لهم عن سامح أيضًا، فحسن فقط هو من يعرفه، وبالطبع محمود يعرفه.

أخذ محمود ساعات قبل أن يتحرك لسانه وينطق بعض الجمل المفهومة، وكأنه نسي الكلام أو فقد الذاكرة، وخلال أسبوع كانت أدميته قد بدأت الرجوع إليه قليلًا، وأيضًا الذاكرة.

حكى لهم كيف قُبض عليه بعد مقتل جميع من معه ولم يُعرض على قاضٍ، وتم الزج به في السجن، وطال انتظاره وحيدًا حتى يئس من الحياة ويأست الحياة منه.

ثم حكى له أمجد عن سامح وبطولاته وبسالته وحديثه عنه، وحكى كيف استشهد بطلًا في حربٍ لم يسمع عنها محمود من الأساس.

كان كم المعلومات الذي يأخذه محمود منهم هائلًا، لا يستطيع أن يستوعب معظمه، فكان أمجد يشفق عليه فيحكي له القليل فقط، وبعد أسبوع أصدروا قرارًا بالإفراج عن أمجد وحسن والإبقاء على رأفت وصديقه الآخر كما توقع رأفت تمامًا.

وقبل أن يخرجا من السجن طلب أمجد مقابلة المسؤول عن السجن، وبعد إلحاح شديد وافقوا على طلبه، فحكى له حكاية السجين محمود الذي هرم في السجن وليس لسجنه من ورقٍ يُثبت وجوده أو سببٍ يستدعي حبسه.

فتدارس الأمر، وأمر بالإفراج عنه هو أيضًا ليرى الشمس التي لم يرها منذ سنوات لا يستطيع إحصائها.

ورحل حسن في طريقه، واصطحب أمجد محمودًا معه عائدًا إلى الإسكندرية، وشهر فبراير يلفظ أنفاسه الأخيرة.

العودة الثانية

أحيانًا يمر إنسان بتجربة، تجربة واحدة، تُغير نظرته للحياة بشكل كامل، وتُسيطر على كل أفعاله ومعتقداته، تجعله يكره من أحب، ويحب من كان يكرههم، وتُغير خريطة مستقبله.

كانت عودة أمجد هذه المرة إلى الإسكندرية مختلفة، وكأنه يعود من غربة إلى غربة، وكأن مصطلح الوطن قد تلاشى عنده أو كاد أن يفعل.

الأوطان فكرة سخيفة، سخافة أن تُولد على قطعة أرض فيطمع فيها الناس ويقتلوك من أجلها، سخافة الإنسان نفسه، ذلك الذي اعتلى عرش الشر في العالم فما امتلك قوة إلا واستبد بها، وما امتلك من سلاح إلا وأفرغه في صدور الناس.

لا يوجد حب في هذه الدنيا، لا يوجد عدل، حتى في الحروب القيادات تخون أفرادها، الفساد هو المحرك لكل شيء في هذا العالم القميء.

كان أمجد سارحًا بتفكيره وبجواره محمود صامت صمت القبور، حينما تذكر أن الإسكندرية تعني ليلى، كيف نسي ليلى هكذا!

حاول تذكر تلك الذكريات السعيدة بينهم، حاول أن يتذكر أول مرة رأى فيها ليلى، لكنه فشل، بل إنه حاول أن يتذكر ملامحها وفشل.

وكأن كل ذكريات الفرحة قد انسحبت من عقله وانمحت، وتركت فراغًا تم ملؤه بكل ذكريات الألم.

وصل إلى الإسكندرية في ظهيرة يوم مشمس من شهر مارس، وتوجه إلى بيته وهو يتحسس طريقه وكأنه أول مرة يسير في تلك الطرقات، وعندما وصل إلى بيته تذكر أنه لا يحمل مفتاحًا للباب فقد فقده في أثناء تلك الحرب الطويلة، فدق الباب كثيرًا فلم يُجبه أحد. فاخذ محمود واتجه إلى بيت صلاح الساعاتي ودق بابه فلم يُجبه أحد أيضًا، فنزل مع محمود وبحث عن غرفة صغيرة استأجرها وقد مرت عليهم ليلة كاملة لم يناموها، ناما، وعندما دقت الساعة العاشرة مساءً استيقظ أمجد ليجد محمود جالسًا كالصنم.

تركه أمجد وذهب فاشترى عشاءً وتركه له واستأذنه بأنه سيتركه في هذه الحجرة، فلم يُجبه فتركه وخرج واتجه إلى بيته مرة ثانية، وعند الباب سمع صوت حياة بداخله، فاستبشر وطرق الباب وانتظر.

فُتحت شراعة الباب وأطلت منه سيدة يبدو على وجهها أمارات جمالٍ يُجاهد الرحيل ويتمسك بها لآخر لحظة، رغم العينين الغائرتين في تجويف أسود، والشفاه البيضاء كبشرتها، والوجه الذي هربت منه الدماء فأصبح أصفر اللون. نظرت إليه متسائلة:

مين؟

فدقق أكثر في ملامحها، هي ليلى، لكنها تغيرت كثيرًا، هو أيضًا قد تغير، حرقته الشمس وطالت لحيته وشعره، وأحاطه الوسخ من كل جانب من رحلة طويلة وزنزانة ضيقة.

لم يرد على سؤالها وهو ينظر إليها في صمت، فكادت أن تُغلق الشراع مفزوعة من شكله، لكنها فتحته مرة ثانية، ونظرت بتدقيق أكثر، ثم تراجعت خطوة إلى الخلف صارخة:

أمجد؟

لم يرد أمجد، وقد تذكر كل شيء، تذكر ذلك الحب الذي لم يستطع تذكره طول الطريق، تذكر ذلك الوجه الذي كان إشراقة حياته اليومية، ورق لما حدث له من ضعف ووهن.

لم تعد ساقيه قادرتين على حمله فجلس على الأرض ساندًا ظهره على الباب الذي مازال مغلقًا، وبدأ يطرق رأسه على ركبتيه المضمومتين إلى صدره وهو يقول بطريقة أقرب إلى البكاء:

ياريت دا كله ما حصل، ياريت دا كله ما حصل.

فتحت ليلى الباب، واحتضنته وهي جالسة على ركبتيها، واختلط بكاؤها بكلمات أمجد:

ياريت دا كله ما حصل...

وبعد قرابة الخمس دقائق أقنعته بالدخول، وعندما دخل انتبه لصوت بكاء طفل صغير لم ينتبه لصوته من قبل، صمتت الدنيا من حوله إلا من صوت بكائه، وسأل:

إيه الصوت ده؟ تركته ليلى ودخلت إلى حجرة النوم ورجعت تحمل طفلًا صغيرًا، صغيرًا جدًا وكأنه وُلد بالأمس فقط. مدت يدها به إلى أمجد:

خد ابنك، خد أمجد يا أمجد. أصاب الذهول أمجد، ومد ذراعيه بطريقة شبه آلية فحمله منها، وبدأت ليلى تحكي:

اكتشفت إني حامل بعد ما اختفيت بأسبوعين، وقضيت فترة الحمل كلها بفكر لو كنت هترجع وتشوف ابنك أو بنتك وتسمّيه أنت، بس ماجتش، قررت أسميه أمجد لو كان ولد، واسميها ليلى لو كانت بنت، وطلع ولد فسميته على اسمك. ثم صمتت لبرهة ثم قالت ببطء:

كنت فين يا أمجد؟ سبتنا ورحت فين؟ نظر لها نظرة فارغة قبل أن يعود ليتأمل الطفل الصغير دون أن يجيب على سؤالها. كانت مشاعره متداخلة، يشعر أنه عاد إلى حياته القديمة ونسى كل شيء من مآسيه السابقة، ويشعر وكأن طبول الحرب قد بدأ طرقها يقل في رأسه وهو يحمل طفله، لكنه كان يشعر في نفس الوقت أن ليلى ليست فقط زوجته، لكنها يهودية. لم تُعد ليلى السؤال مرة ثانية، وذهبت وأعدت الحمام لأمجد، وأخذت منه أمجد الصغير كي يذهب والده ليستحم، وأعدت له عشاءً. بعدما اغتسل وربط شعره الطويل إلى الخلف وتهذب لحيته، وأكل من طعام زوجته، أخذوا طفلهما إلى سرير صغير بجوار سريرهما، وجلست ليلى على السرير ضامة ساقيها المتعانقين إلى صدرها، وأمجد يجلس بجوار سرير ابنه يراقبه وهو نائم. كان يشبههما معًا بطريقة عجيبة، فقد

يقول أحدهم إنه الخالق الناطق والده، وآخر أنه الخالق الناطق والدته.

طال الصمت كثيرًا، لتقطعه ليلى بسؤالها:

كنت فين يا أمجد؟ اعتدل أمجد، ثم ترك سرير صغيره وذهب إلى سريرهما وتمدد بجوار ليلى وظهره لها. بعد فترة صمت قال:

مش مهم دلوقتي كنت فين، هحكيلك الصبح، احكيلي إنتِ عملتِ إيه السنة دي. زفرت ليلى في غيظ، ثم ما لبثت إلا وبدأت تحكي. حكت خبر والدها الذي ذهب ليجمع ملابسه ويترك أمها بعدما عرف ما دبرته لأمجد هي وشلتها الفاسدة، وذهبت ليلى وراءه تخشى عليه من بطش والدتها، وعندما وصلت قابلها دسوقي ينزل الدرج مسرعًا وهو يكمل ارتداء ملابسه. فأسرعت بهلع ودخلت البيت فوجدت والدها يلفظ أنفاسه الأخيرة، فعرفت ما حدث. بعد شهر من وفاة أبيها، قررت أن تعيد فتح محله وكانت قد عرفت أنها حامل، لكن وحدتها ستقتلها وهي لا تتعامل مع أحد، ففتحت المحل وكأن والدها لم يمت. وعرفت بعد ذلك أن والدتها قد سافرت إلى اليونان لتذهب بعد ذلك إلى إسرائيل. عندما ذكرت كلمة "إسرائيل"، هب أمجد كالملسوع قائلًا:

ما اسمهاش إسرائيل، اسمها فلسطين، واللي هناك دول كيان صهيوني محتل لأرض فلسطين. بدهشة من ردة فعله، ردت:

أنا بقول إسرائيل لأن خلاص الأمم المتحدة عملوها دولة، وكتير من دول العالم اعترفت بها ومنهم أمريكا.

رد بكره شديد:

نظام عالمي ابن كلب، ومافيش حاجة اسمها إسرائيل مهما تواطئوا.

أحبت أن تُنهي ثورته، فقالت بهدوء:

خلاص، عرفت إنها راحت عشان تهاجر لفلسطين. فرجع أمجد لوضعه الأول وهدأ، فأكملت: وفي أحد الأيام، دق الباب ففتحت لتجد آخر شخص تتوقع مجيئه، وجدت عم دسوقي بشحمه ولحمه، سألها عن أمجد، فأخبرتها أنه لا علاقة بينه وبين أمجد ليسأل عليه. فترجاها أن تخبره أين هو. فتحت إلحاحه أخبرته أنه سافر للعمل. فسألها عن موعد عودته فأخبرته أنها لا تعلم، فترجاها أن تُخبره عندما يعود، وبعد فترة أخرى أتاها ليسأل، ثم بدأ يكرر ذلك الأمر كثيرًا وقد وضح السن عليه وكأن الشيخوخة قد سقطت عليه مرة واحدة. لكنه منذ شهرين لم يأتِ للسؤال على غير عادته مؤخرًا. ثم أطرقت برأسها للأسفل وهي تجلس كما هي، وبعد بعض الصمت قالت:

تعبت أوي يا أمجد، تعبت أوي من غيرك. ولم تمنع دمعة أبت إلا أن تخرج بعض ما يختلج في صدرها من ألم تحاول أن تخفيه حتى لا تستقبل أمجد بالهم والحزن. ولنفس الهدف لم تحكِ له خروجها خلفه ومرضها، أو حال طفلهما الصغير. انتظرت لعل أمجد يحكي عن غيبته، لكنه لم يحكِ شيئًا فنامت من التعب، ورقد أمجد بجوارها معطيًا ظهره لها وهو يفكر في صمت كيف ظلم تلك المسكينة معه؟! كان يفكر هل لو مات أصدقاؤه وهو بجوار زوجته كان الأمر سيكون أكثر هونا عليه من ذهابه معهم

ليُستشهدوا جميعًا إلا هو! أم أن ما فعله كان الأفضل؟ هل كانوا على حق عندما حاولوا رد الصهاينة، أم أنهم شغلوا بالهم بهمٍ ليس بهمهم؟ هل ظلم ليلى فجزاه الله بأن تركه هكذا في الحياة وحيدًا بعدما أخذ منه كل من أحبهم؟ هل ليلى تختلف عنهم بالرغم من أنها يهودية؟ هل هذه الوحشية توجد بداخلها لكنها تختفي تحت جلدها الرقيق وملامحها الجميلة؟ لكنه همس لنفسه وكأنه يحاول أن يطرد هذه الفكرة من رأسه:

لا، ليلى مختلفة، مختلفة تمامًا، مش هصدق إنها زيهم أبدًا، ليلى إنسانة رائعة. لكن الوسواس عاد يحذره أن يُلدغ من نفس الجحر مرتين، فطرد الوسواس وانقلب ليشاهد ليلى النائمة. تأمل وجهها الجميل الذي أصابه الوهن والذبول، والحزن المرسوم على وجهها بالرغم من نومها، وطريق الدموع الذي حُفر على خديها، فطُرد كل وسواس من رأسه وشعر بمقدار الأنانية التي كان فيها عندما تركها تعاني ورحل عنها بهذه الطريقة.

اقترب منها واحتضنها، فدخلت بين ذراعيه مستسلمة ليشعر بذلك الجسم الذي أصابه الهزال، ثم أدارت ليلى ظهرها له ليحتضنها من الخلف كما كان يفعل دائمًا، وهي تحتضن ذراعيه بدورها، وتلك الدمعة تفر من عينها لتلمس أصابعه، ليرجع ليحدث نفسه همسًا:

يا ريتني ما رحلت، ياريتني ما سبتها.

فسمعته وضمت ذراعيه بطريقة أقوى ودموعها تنهمر.

نام أمجد وعندما استيقظ لم يجد ليلى في السرير، فقام ليجدها قد وضعت أمجد الصغير بجوارها في المطبخ مشغولة بإعداد الطعام، وعندما شعرت به قامت ويدها مليئة بالدقيق، فعانقته بحذر وقبلته، وقد بدأت الحياة تعود إلى وجهها بعض الشيء.

صباح الخير يا حبيبي، ١٠ دقايق بس والفطار هيبقى جاهز، نمت كويس؟

صباح الخير، آه نمت كويس.

طيب خد دش لحد ما أكون خلصت الأكل.

ذهب واغتسل، وعندما أعدت ليلى المائدة وجدته يصلي فانتظرته حتى فرغ من صلاته ليفطرا سويا، وبعد الإفطار كانا يشعران بالانتعاش والحب يملأ البيت، وطفلهما هادئ تمامًا. فسألها أمجد:

هو حجمه صغير زيادة عن اللزوم، صح؟

آه، حجمه صغير شوية.

لازم يا ليلى تاكلي كويس، إنت كمان بقيتي رفيعة أوي، وعشان كمان تقدري ترضعيه.

ابتسمت ابتسامة باهتة:

كنت محتاجة أوي الكلام دا، كنت محتاجاك جنبي.

قام من على كرسيه فارتكز على ركبتيه أمام كرسيها واحتضنها من خصرها، وهي تداعب شعره، قبل أن تقول:

الشعر الطويل شكله حلو أوي عليك، ودقنك كمان كده حلوة.

فنظر إليها مبتسمًا وأرسل لها قبلة في الهواء، فنزلت هي إليه وقبلته، فهاجت مشاعرهما في هذا الصباح الهادئ، فتلاقت روحيهما وجسديهما في حبٍ منع عنهما سنة طويلة... طويلة جدًا.

وبعد هدوء الأنفس واكتمال تواصل القلوب، جلس أمجد في السرير وانطلق لسانه بالحديث، حكى لها كل شيء منذ ذهابه للصحراء يائسًا من حبها، حكى بإسهاب وهو يضحك أحيانًا فتضحك، ويبكي أحيانًا فتبكي، ويصمت أحيانًا فتحترم صمته.

وعندما وصل إلى ذكر محمود الذي قابله في السجن، انتفض وهو ينطق باسمه... وقد نسيه تمامًا، فلم يُكمل حكاية محمود ونزل مسرعًا ليشتري طعامًا ثم يذهب إلى محمود في حجرته.

دخل عليه الحجرة فوجده يجلس في صمت كما اعتاده، فاعتذر له دون أن يُجيبه، وفتح أكياس الطعام حتى يقدمه له فوجد طعام الليلة الماضية أمامه لم يُمس.

ليه كده يا محمود؟ لازم تاكل شوية.

لم يُجبه محمود بشيء سوى الصمت.

محمود ماينفعش تعيش كده، لازم تبدأ حياتك من تاني، اللي فات انتهى ومش هيرجع، حاول على الأقل.

لم يُجبه محمود أيضًا بشيء، فقرر أن يذهب وإن أراد أن يأكل فسيأكل ويعود له صباحًا.

وعندما فتح الباب وهم بالخروج، نطق محمود:

إحكيلي سامح قالك عني إيه.

كان قد سبق وحكى له، لكنه أغلق الباب وعاد فجلس وحكى له كل شيء بالتفاصيل، ثم حكى له مرة ثانية عن سامح وبطولاته، ثم كذب عليه:

سامح الله يرحمه قبل ما يموت، قعد معايا وقال لي يا أمجد أنا حاسس إن أخويا محمود عايش، حاسس إنه هيرجع تاني من المكان اللي فيه وهيبدأ حياته، لو قابلته يا أمجد سلم عليه ووصيه ينسى اللي فات ويبدأ من جديد.

كان أمجد يتابع وجه محمود ليرى إن كان قد تأثر بكلامه، لكن وجه محمود كان بلا ملامح تمامًا، ثم بدأ محمود في الكلام فحكى قصته مرة ثانية كما حكاها له في السجن، بنفس الكلمات تقريبًا، حتى خُيِّل لأمجد أنه قد حفظها كما حفظ سامح خطابه الذي تركه له من قبل.

وعندما أتم قصته وقد أصاب أمجد الملل منها، أغراه أمجد قائلًا إن أكل طعامه سيخرجه إلى البحر، فانتبه محمود وتقدم إلى الطعام فأكل، وأمجد غير مصدق أن خدعته قد انطلت عليه.

وبعدما انتهى من أكل القليل من الطعام، أخذه أمجد إلى البحر وفي نقطة آمنة نزلا وجلسا معًا قبل أن يتركه أمجد على وعد أن يعود ليصحبه إلى الحجرة مرة ثانية.

رجع أمجد إلى البيت ليجد كل شبابيكه قد فُتحت وليلى تنظف كل شيء وملاكهما الصغير نائمٌ بهدوء، وعندما رأته أقبلت عليه لتعانقه لكنها تذكرت التراب الذي يملأها فتراجعت، فعانقها هو:

إنتِ مش هتفتحي محل عم صلاح؟

النهارده ليك بس يا حبيبي، وبكرة كمان، وأسبوع كمان.

ابتسم في رضا، ثم دخل ليراقب طفله النائم مرة ثانية.

لم يرَ طفلًا هادئًا كطفله، بالتأكيد هو هادئ كليلى، لأنه كان شقيًا جدًا ومزعجًا وهو صغير.

لكن هدوءه لم يدم طويلًا، وتغير إلى حركات سريعة ليبتسم أمجد ويمد ذراعيه ليحمله، لكنه ذعر فجأة وهو يرى تلك الحركات السريعة تتحول إلى ما يشبه التشنجات الشديدة، فنادى على ليلى في ذعر فأتت مسرعة تجري.

ماله يا ليلى؟ بيعمل كده ليه؟ ابننا مالّه؟

أخذته منها في هدوء، وبدأت تهدهد طفلها في حنان، وبعد دقائق من تشنجاته وذعر أمجد، بكى الطفل قليلًا ثم هدأ وسكن كأن شيئًا لم يحدث.

مالّه؟ إيه اللي حصل ليه؟ هو تعبان؟

أشارت إليه أن يأتي بدواء الطفل من الأجزخانة الصغيرة، فأتى بزجاجتين من الدواء، أحدهما مكتوب عليه "مضاد للتشنجات" والأخرى مكتوب عليها "للصرع"، وانهار أمجد تمامًا.

أعطت ليلى الدواء للطفل وأمجد يجلس في ذهول، وبعدما انتهت، حكت له:

الدكتور بيقول إن في بؤرة صرعية في دماغه نتيجة حرارة شديدة اتعرض لها وهو في بطني.

وهو اتعرض لحرارة شديدة ليه؟

بسخرية أجابت:

من كُثر دفا حضنك ليَّ وأنا حامل.

تجاوز عن سخريتها وكرر بحدة أكثر:

وهو اتعرض لحرارة شديدة ليه؟

ردت وهي في قمة غيظها فحكت له ما حدث لها من نزولها وراءه وعودتها مصابة بالتهاب رئوي كاد أن يُميتها، لكنه لم يفعل وترك بدلًا من ذلك أثرًا على الطفل الذي لم تكن تعلم شيئًا عن وجوده في رحمها.

فبكى أمجد حتى النحيب، وهو يعتذر لها ويُقبل الطفل ويعتذر له، وهي صامتة وقد أشاحت بوجهها عنه، قبل أن تقول:

إنت كنت أناني أوي، إنت أناني.

نظر لها أمجد ودموعه تنزل دون أن يتحدث، ثم ذهب فغسل وجهه بالماء وخرج من البيت.

ذهب إلى محمود الذي تركه عند البحر واصطحبه وعاد إلى الحجرة وتركه ونزل.

ذهب هو إلى البحر وجلس وحيدًا يُفكر كيف أذى أقرب الناس إلى قلبه، فكل من يعرفهم رحلوا، والباقون سيعيشون وهم يحملون منه الأذى.

جلس طويلًا حتى اشتدت عتمة الليل لتقارب عتمة الأفكار التي تختلج في صدره وتتدافع به إلى شطآن من الشك والألم والحزن، فعاد إلى البيت لتقابله ليلى جزعة:

الحمد لله، الحمد لله.

إيه اللي حصل، مالك؟

أعطت له ظهرها وراجعت لحجرتها، ثم التفتت إليه عند باباها:

خفت ما ترجعش، خفت تكون مشيت تاني.

تركته ودخلت غرفتهم، وجلس هو يُفكر كما لو كان سيصيبه الجنون من كثرة الأفكار المتزاحمة في رأسه. ثم دخل الحجرة فوجد ليلى نائمة، فاقترب منها وهمس في أذنها:

ليلى، هتسامحيني على اللي عملته؟

فأجابته وهي نصف نائمة:

عمري ما هسامحك.

ثبت في مكانه لبرهة قبل أن يبتعد عنها وهو يعرف أنها صادقة، يعرف أنها وهي نصف نائمة تقول الصدق، وتأكد أنها لن تسامحه أبدًا.

تقلب بجوارها في السرير بعض الوقت ثم نام، واستفاق على صوت حركات لأقدام تمشي على أطراف أصابعها فقام مفزوعًا، فوجد ليلى تحاول ألا تُوقظه وهي ترتدي ملابسها:

صباح الخير يا أمجد، معلش صحيتك.

صباح الخير، إنتِ بتلبسي ورايحة فين؟

رايحة محل الساعات.

مش إنتِ قلتِ إنك مش هتنزليه اليومين دول؟

غيَّرت رأيي، هقعد في البيت الوقت ده كله أعمل إيه؟ بس هقفل بدري وارجع، على العصر كده.

فرك عينيه ولم يُجادلها، وراقبها وهي ترتدي ملابسها في صمت، وبعدما أتمت ارتداء ثيابها، حملت الطفل وهمت بالخروج، وقبل أن تلقي السلام الأخير عليه بادرها:

ما تسيبي الولد معايا لحد ما ترجعي؟

نظرت إليه نظرة بلا معنى وقالت:

سلام.

وخرجت وأغلقت الباب خلفها.

أصابه بعض الإحباط لكنه يعرف أنها تملك كل الحق، فقد تركها وترك طفلهما حينما كانا يحتاجان إليه بشدة، وأذى ابنه الحبيب من قبل أن يُولد.

نزع نفسه من الإحباط وقام فوجد الإفطار قد أعدته ليلى قبل نزولها فأفطر ونزل، ذهب إلى المقابر فزار قبر والده ووالدته، ثم مر على قبر عم محمود، وقرأ للجميع الفاتحة، ثم قرأ الفاتحة على أرواح كل شخص عرفه ومات في الحرب مع الصهاينة، ثم اشترى طعامًا بعدما صلى الظهر وذهب إلى محمود، وكان صامتا كالقبر كعادته ولم يأكل من آخر مرة أكل فيها، فجلس معه قليلًا قبل أن يُبادره محمود قائلًا:

إحكي لي سامح قالك عني إيه؟

تأكد أمجد أن محمود أصبح مجذوبًا، لكنه إكرامًا لصديقه الشهيد حكى له باختصار، وعندما أتم حديثه، تحدث محمود فحكى له كل ما حدث معه بنفس الكلمات ليتأكد أمجد أنه بالفعل يحفظها عن ظهر قلب.

وأشفق عليه بشدة، قد يكون كرر هذه القصة لنفسه كثيرًا حتى حفظها تمامًا في خلال سنينٍ طويلة من الوحدة.

ثم أغراه بالبحر فأكل، وتركه على البحر وعاد إليه مساءً فأعاده إلى البيت.

وتكرر هذا الحال يوميًا بنفس التفاصيل، حتى أن أمجد حفظ ما يقصه على محمود من أمر أخيه وما يقصه محمود عليه من أمره بالكلمات والحروف وطريقة الحكي.

وأصبحت ليلى تنزل كل يومٍ مع الطفل الصغير ويرجعون بعد صلاة العصر بقليل، فتُعد طعام الغداء ويُمضون باقي اليوم في صمت في العادة أو حديث قليل.

وفي إحدى الأمسيات كان أمجد يحمل بعض الأفكار فقرر أن يُشرك ليلى معه، فسألها:

إيه رأيك أنزل أدور على شغل في سوق الأقمشة؟

ابتسمت ليلى له في فتور:

لو عايز تشتغل انزل دوَّر.

بفكر أرجع اسمع نصيحة عم محمود الله يرحمه، وأشتغل شوية، ولما أخد خبرة هرجع أفتح المحلات.

فكرة كويسة.

رأيك يعني اتوكل على الله.

زي ما تشوف يا حبيبي، اعمل.

بحنق رد:

إنتِ بقيتي غريبة، ردودك فاترة.

نظرت إليه ببعض الاستخفاف:

قبل كده قلت لك هنقف مع بعض ونوقف الشغل تاني، ما عجبكش ومشيت، دلوقتي أعمل إيه؟ اللي انت عايزه اعمله، انت تعرف تقرر لنفسك.

إنتِ مش هتنسي اللي فات أبدا.

اللي فات ما بيموتش، إنت نسيت اللي فات؟

سكت وتراجع للخلف وهو يُفكر في سؤالها، فهزت رأسها وأشاحت بوجهها عنه، قبل أن تُتبع:

لما تنسى اللي فات، ابقى انساه أنا كمان.

كان يُفكر هل يستطيع نسيان ما مضى، هل يستطيع أن ينسى كيف خذل عم محمود وارتمى في أحضان من وضع مسدسه على رأسه؟ هل يستطيع أن ينسى بحور الدم التي رأها؟ هل يستطيع أن ينسى صراخ الأطفال ورعب العجزة والشيوخ؟ هل يستطيع أن ينسى ما فعله اليهود بهم؟ هل يستطيع أن ينسى أن ليلى يهودية؟!

لم يجد إجابة، وليلى تتابعه بطرف عينها، ثم تبتسم بجانب شفتها وهي تعرف أنه لن يستطيع أن ينسى شيء، أي شيء مما مضى.

وفي اليوم التالي نزل السوق للبحث عن عمل، وفتح الجميع أبواب محلاتهم له، فبدأ العمل من أول يوم. بعدها بيومين أخرج محمود كعادته ليجلس على شاطئ البحر، لكنه عاد مساءً فلم يجده، كان قد اختفى. بحث عنه في كل مكان لمدة أسبوع، لكنه لم يستدل على أي أثر له، فسلَّم أمره لله واستودعه إياه.

كان يعمل نصف يوم فقط، من الساعة العاشرة صباحًا حتى الخامسة مساءً، وباقي اليوم يقضيه مع ليلى وأمجد الصغير في حياة تُشبه حياة الأشباح، لا يُهوِّن عليه وقته إلا بعض اللحظات القليلة التي يصحو فيها الطفل ويلاعبه. كان الدواء الذي يأخذه يُبقيه نائمًا أغلب الوقت.

أما ليلى، فكانت تائهة بين قلبٍ مُحب أشد الحب، وناقمة أشد النقمة.

وأمجد يأكل التفكير رأسه، ويدمر بدنه، فيُفكر في كلام عم محمود "لا تحارب الدنيا فتهزمك"، ثم يُفكر في كيف أن بعد كل كمالٍ يُنتظر النقصان، لكن النقصان الذي أصاب حياته كان نقصانًا قاسيًا.

وفي صباح أحد الأيام، دق الباب، وإذ بموظف من المحكمة، أمجد مطلوب في المحكمة. ذهب أمجد ليستكشف الأمر، بينما ذهبت ليلى إلى محل الساعات وهي في شدة القلق وطلبت منه أن يُعلمها ما الخبر لتطمئن.

وفي المحكمة عرف الخبر...

عم دسوقي توفاه الله، وقد كتب كل ما يملكه لأمجد بالفعل كما كان قد أخبره مرة.

استغرب أمجد ما فعله عم دسوقي بشدة، ولم يملك إلا الترحم عليه، واستلم بعض الأصول في المحكمة وذهب ليستلم القصر، وهناك أتم الاستلام، وكأنه في حلم.

كان يرى كل شيء وكأنه قد حدث بالأمس، ويحاول أن يطرده من رأسه.

أستاذ أمجد.

التفت أمجد ليجد البواب ينادي عليه، لم يتذكر اسمه:

إزيك ياريس، عايز حاجة؟

ابتسم في ودٍ قائلا:

محسوبك سيد، شكلك نسيتني.

رد الابتسامة بابتسامة:

أهلا يا سيد.

تحدث سيد دون توقف ودون طلب:

أنا أول مرة شفتك فيها يا أستاذ أمجد، خفت عليك وكان نفسي أنصحك تاخد حذرك من دسوقي بيه الله يرحمه، كان شكلك يعني ما تأخذنيش ابن ناس وطيب ولسه أخضر، ودسوقي بيه خيره علينا وكريم معانا، بس عارفين إنه مش سهل، والله حسيت بالذنب اليوم اللي شفتك فيه خارج وشك مقلوب وصوته جايب آخر القصر، ندمت إني ما وقفتكش وقلت لك على اللي يرضى الضمير،

وبيني وبينك أنت ما اتلسعتش أوي، دي حاجة صغيرة، ودونا عن كل الناس، دسوقي بيه الله يرحمه اتغير بسببك.

إيه اللي حصله يا سيد؟

اقترب منه سيد كأنه يخشى أن يسمعهم أحد وهمس له:

إنت عارف إن صنف الستات عنده كان مزاج، ليلتها طرد الست اللي معاه، وما شفناش ست دخلت عليه من بعدها، كانوا ييجوا وبعد خمس دقايق يخرجوا ووشهم مقلوب، أصل هو الله يرحمه كان يشتري أي ذمة بفلوسه، إذا كان اشتري البكوية مش هيشتري ست!

اشترى البكوية؟

إيه دا إنت معندكش خبر؟ آه والنعمة اشترى البكوية، دي الناس كلتها عارفة الحكاية دي.

لأ، مكنتش أعرف، كمل، إيه اللي حصل بعد كده؟

ابتسم سيد وهو سعيد بأنه حظي على اهتمام أمجد وأكمل:

شوية وعرفنا إنه فك شراكته مع توني اليهودي، ومر عليَّ وقال لي إن توني وكل الناس اللي تبعه اللي بعرفهم بالشكل كده بس معرفلهمش اسم، لو حد منهم جه القصر ما دخلوهش، وأقولك إيه يا أستاذ أمجد، كانوا علينا زي الدبان كل يوم، ويقعدوا يتحايلوا ندخلهم، شوف توني اللي كان يُنفخ وينطر كان بيتحايل عليَّ أدخله وأنا أقوله لأ، وبعد كده عرفت إن كتير من رجالة توني اتقبض عليهم، معرفش ليه اتقبض عليهم الصراحة بس أكيد عشان

النسوان أو المخدرات، وتوني سافر، وانقطعت رجليهم عنا خالص، بس بعدها الدكاترة بقوا داخلين طالعين على دسوقي بيه، ومحدش فينا عرف ماله، غير إنه بقى يدبل، ومكنش بيطلع من البيت غير مرة أو مرتين كل شهر، وبينّي وبينك سألت السواق بيروح فين، فقالي عنوان سألت على صاحبه من باب الفضول فعرفت إنه عنوان سعادتك.

ضحك أمجد بشدة:

دا انت شغال جاسوس بقى.

لا والله يا أستاذ أمجد، أنا بس كنت بطمن، بس قولي يا أستاذ أمجد، هو كان بيرجع من عندك وتحس إنه مهموم أكتر من الهم اللي هو فيه ليه؟ كان بيحصل إيه يعني؟ نظر له أمجد بشدة وهو يكتم ضحكته:

خليك في حالك يا سيد وكمل. تنهد سيد كالمغلوب على أمره، وأكمل:

وبعدين في يوم راحوا يصحوه ما صحيوش، ألف رحمة ونور عليه، وبعدين سمعنا خبر إنه كتب لك كل حاجة، فرحت أوي والله يا أستاذ أمجد، إنت تستاهل كل خير. ابتسم أمجد له قائلًا:

طيب يا سيد، تُشكر، روح يلا شوف شغلك. فقام سيد وهو يشعر بالرضا، بينما أمجد يُفكر فيما حدث لعم دسوقي، كيف يفعل ذلك معه الآن وكأنه يُحبه بالفعل كولده، وسابقًا يستغله ويضعه في مهالك لا يعلمها إلا الله. الإنسان متناقض وصعب أن يفهم دواخله أحد، بل الحياة كلها متناقضة وشفراتها لا تُفك إلا لحكيم لم يعد

موجود في هذه الدنيا. انتظر بعض الوقت حتى أتى المحامي، وراجع كل الأوراق والمستندات، وعندما انتهى الأمر قال له أمجد جملة واحدة قبل أن يرحل:

بيع كل حاجة، خلال شهر عايز تكون كل حاجة اتباعت. كانت العاشرة مساءً عندما عاد إلى البيت وقد غاب عن العمل في هذا اليوم، ليجد ليلى جالسة وراء الباب والقلق مرسوم على وجهها، وعندما ألقى السلام، سألته:

إنت كل ده في المحكمة؟

لأ، هحكيلك اللي حصل، مفاجأة.

مكنش في وقت تعدي عليَّ تقولي إيه الموضوع بدل ما أنا قاعدة في قلق كده وخايفة يكونوا قبضوا عليك.

معلش نسيت خالص. فانفجرت فيه كما لم تفعل من قبل:

إنت إنسان أناني، إنت ما يهمكش غير نفسك، ما بيفرقش معاك مشاعر الآخرين تمامًا. ثم تركته ودخلت غرفتها وأغلقت بابها وراءها بشدة، فانفزع الصغير فجلست تهدأ من روعه، وأحس هو بالخطأ، لكنه لم يدخل عليها حتى تهدأ. وبعد بعض الوقت دخل وهي جالسة عابسة الوجه، فجلس بجوارها، قبل أن يتنحنح ثم يقول:

عايزها تعرفي إيه الموضوع؟ فردت من فورها:

لأ مش عايزة أعرف، ومش فارق معايا. فقام غاضبًا وتركها، فبكت. وعندما دخل السرير ليلًا حاول أن يلمسها وهي نائمة، لكنه أحس

بقشعريرة تسري في جسدها قبل أن تشده بعيدًا عنه، فتسمَّر في مكانه قليلًا وهو ينظر بدهشة إليها، قبل أن يُدير ظهره لها. وفي الصباح دون أن يسألها، بادرها فحكى لها كل شيء، وعندما انتهى علَّقت باقتضاب:

طيب كويس. تجاوز عن طريقة تعليقها وأكمل:

رأيك إيه اللي خلاه يعمل كده؟

معرفش، يمكن ضميره صحي، أهو أحسن من أمي، كل الناس بتغلط المهم اللي يحاول يصحح الخطأ بتاعه. لم يفهم أنها بجملتها تلك كانت تُرسل له رسالة، فابتسمت بسخرية وقالت:

مفيش فايدة. سأل باستغراب:

مفيش فايدة في إيه؟ فردت بسخرية:

في أمي، مفيش فايدة فيها. لم يفهم الرسالة أيضًا، ورد بكل بساطة:

الصهاينة ولاد كلب.

قصدك أمي بنت كلب؟

الصهاينة كلهم.

اليهود؟ صمت قليلًا قبل أن يُجيب:

لأ، إنتِ مش زيهم، ولا عم صلاح الله يرحمه كان زيهم، يمكن كتير منهم ولاد كلب بس أنتم مختلفين. لكنه في قرارة نفسه لم يكن يعرف إن كان ما يقوله صحيحًا أم أن كل اليهود أولاد كلب ومن طينة واحدة، وليلى كانت ذكية وعرفت ما يدور في خلده،

فابتسمت ابتسامة سخرية ولم تُعلق. وبعد مُضي بعض الوقت بادرها أمجد قائلًا:

أنا على فكرة هبيع كل أملاك عم دسوقي.

أحسن، الفلوس السايبة هتنفعك أكتر.

لأ، مش هحتفظ بمليم من فلوس الراجل ده، مفيش مليم منهم هيدخل جيبي. فنظرت له باستغراب:

إمال هتعمل بهم إيه؟ تنهد قبل أن ينظر في الفراغ قائلًا:

هبعتهم للفلسطينيين، هبعتهم للي هيفضلوا يحاربوا اليهود ولاد الكلب. نطقها هذه المرة دون أن ينتبه، دون أن يقول الصهاينة، نطقها وكأنها سهم اخترق قلب ليلى، وقد صار قليل الملاحظة على غير عادته فلم يلاحظ أي شيء. لكنه لاحظ أنها أصبحت تبتعد لتنام في طرف السرير بعيدًا عنه، وأن كلامها معه قد قل كثيرًا، ومضت حياتهم على تلك الحال لا يشعر بحبها إلا عندما يقوم فزعًا من نومه وقد أتته بعض تلك الكوابيس المعتادة فتحتضنه، فيحكي لها دائمًا ذكرى دموية ذكره الكابوس بها. حتى عرفت كل تفاصيل السنة التي غاب فيها تقريبًا من كوابيسه الكثيرة، وكبر طفلهما قليلًا، لكن مرضه لم يقل، بل ازدادت عدد المرات التي تأتي له فيها تلك التشنجات، وزادت جرعات الدواء، وازداد نومه.

و في ليلة ٩ إبريل ١٩٥٠، قام أمجد من نومه مفزوعًا كما لم يفعل من قبل، وجسده كله يرتعش، فقامت ليلى وقد نفد صبرها من كثرة فزعه ليلا وقالت:

مالك؟ شفت إيه؟

كان جسده يرتعش بشدة، فحاولت تهدئته، وعندما هدأ بعض الشيء، ذهبت إلى طرف السرير مرة أخرى لتكمل نومها، لكنه منعها بسؤاله:

إنتِ عارفة أمنيَّة زوجة منير قتلوها إزاي؟

ردت دون أن تُدير ظهرها:

لأ، إزاي؟

في نفس الليلة دي كانت مذبحة دير ياسين، لما دخل الصهاينة الصبح كانوا من عصابات الأرجون وشتيرن، دخلوا دير ياسين وفي بالهم إنهم يقتلوا الناس فيها ويخوفوا اللي مش هيتقتل عشان يرحلوا عنها، عشان يسيبوا أرضهم ليهم، بس اتفاجئوا بأن بعض القرويين بيضربوا عليهم نار يردوهم عن أرضهم، كانوا خمس قرويين شجعان قدام عصابات مسلحة، ٤ رجال وامرأة، المرأة دي كانت أمنيَّة.

سكت قليلا ليبتلع ريقه بصوت مسموع ويمنع دمعة أرادت أن تفر من عينيه قبل أن يكمل، وليلى تستمع له بانتباه:

كانت أمنيَّة شجاعة، قادت الأربع قرويين لصد هجومهم، وهربوا زي الكلاب الجربانة قدام نيرانهم، كانوا جبناء كعادتهم.

ثم بثق على الأرض وأكمل:

استغاثوا بعصابات الهاجاناه الخنازير، وفعلًا أتوا عشان يتموا اللي نووا يعملوه، ودخلوا القرية، دخلوا دير ياسين، قتلوا كل حاجة، قتلوا كل إشي.

كان يحكي ودموعه بدأت في الإنهمار وهو يتذكر ذلك الرجل الذي يفر من جحيمهم ويقول: "إنهم قتلوهم، ذبحوهم، ما في إشي تركوه، ما في إشي ما نحرق، كل إشي انتهى".

وفي وسط دموعه، بينما عينا ليلى ثابتتان في الفراغ لا تتحرك وظهرها له، أكمل حديثه:

دخلوا القرية فقتلوا كل اللي فيها تقريبًا، قتلوا أي طفل أو امرأة أو رجل قابلوه، ما فرقش معاهم غير إنه عربي، قتلوا خلال ١٣ ساعة حوالي ٣٥٠ فلسطينيًا، ومش كده وبس، خدوا بعض الفلسطينيين أحياء واستعرضوا بيهم في التجمعات اليهودية وقتلوهم، لكن اللي عملوه في أمنيَّة أبشع من كل اللي حكيته ده.

قالت مستنكرة:

أبشع من كده؟

رد وهو مطأطئ الرأس:

أبشع من كده، كان بعضهم شافها وهي بترد هجومهم في الأول لأن شكلها مميز، دوروا عليها وسط الناس لحد ما لقوها، قاومت لحد ما ذخيرتها خلصت، وفي الآخر مسكوها، طلعوها قدام بيتها ورصوا أهلها قدامها، واغتصبوها.

وهنا لم يستطع المقاومة فأصبح صوت بكائه عاليًا والكلمات تخرج منه غير مفهومة بطريقة كافية:

اغتصبوها قدام أهلها، وبعدها قطعوا صدرها وأحرقوه قدام عينيها وقطعوا من باقي جسمها بالحي، وبعدها حرقوها، وقتلوا أهلها بعد ما عملوا فيها كده.

أتم حديثه ثم انقلب في وضع السجود على السرير يبكي بحرقة، وليلى تنظر إلى الفراغ ودموعها تنزل من عينيها في صمت.

وفي الليلة التالية بات كل منهما في غرفة منفصلة، ولم يناما في سرير واحد بعدها قط.

وفي شهر أغسطس، وبالتحديد ٢٥ أغسطس ١٩٥٠، كان أمجد عائدًا إلى البيت وقد أسدل الليل ستاره، وعندما وضع أول قدميه على السلم شم تلك الرائحة، تلك الرائحة التي يعرفها جيدًا، رائحة يكرهها بالرغم من كثرة شمه لها، رائحة الموت.

قفز على السلم هلعًا وقلبه مُنقبض، وأدار المفتاح في باب البيت وقد زادت الرائحة وزعقت لتزكم أنفه، وعندما دخل وجد ليلى على الأرض تحتضن صغيرهما وتبكي، فعرف الأمر فجلس وراء الباب وقد شُلت أطرافه ولم تعد ساقيه تستطيع حمله.

في الصباح أتى أحدهم فغسَّل الطفل الصغير الذي مات في نوبة من نوبات الصرع التي لم ينجو منها هذه المرة، وكفَّنه، وحمله للمقابر مُصطحبًا ليلى، فدفنه بجوار أبيه وأمه.

ورجعا إلى البيت فجمعت ليلى ثيابها دون أن تتكلم، ورحلت، دون أن يحاول منعها، ولم يلتقيا بعدها قط.

أما هو فبعد سنتين أعاد فتح محل والده بعدما غيَّر اسمه، وبعدما ألف السوق وألفه.

صباح يوم ٢٣ مايو ١٩٩٢، كانت تجلس امرأة في شرفة منزلها تحتسي الشاي بالحليب وتقرا الجرنال وتستمتع بهواء الإسكندرية العليل، حينما وصلت لذلك الخبر الصغير في جانب الصفحة الثانية:

"وفاة التاجر السكندري الشهير صاحب محلات ليلى للملابس والأقمشة".

لم تكمل قراءة الخبر بسبب دمعة فرت من عينها ومنعت عنها الرؤية وسقطت لتبلل صورة المتوفي في جانب الخبر.

صورة الرجل الذي لم تُحب غيره يومًا.

تمت بحمد الله ١٩ سبتمبر ٢٠١٢.

محمد إبراهيم الشتيحي

المحتويات

إهداء ٥
تنويه ٦
مقدمة ٧
(١) ٩
"٢" "ليلى" ٣٣
"٣" "الصحراء" ٣٩
"٤" ٥١
"٥" العودة إلى الإسكندرية ٧٣
"٦" الأسكندرية واليهود ٨٧
"٧" ٩٣
"٨" ١٠٥
حرب ٤٨ ..... ١٤٩